أميرة المضحي

أنثى مفخخة



أميرة المضحي

أنــثى مفـخخة

كيف سأتصرف الآن مع قلبي المغرور.

مشاعر متداخلة تعتمل في نفسي، حزينة ويائسة ومحطمة. ركبتُ سيارتي التي هجرتها لأكثر من عامين ذاهبة إلى أحب مكان على قلبي في هذه المدينة. رمز قصص الحب الحزينة كقصتي والنهايات اليائسة كنهايتي. شعرتُ بروحي تختنق وأنا أمشي بخطى بطيئة على الكورنيش، وسرعان ما نزلت الدموع من عينيّ عندما لاحت صورته أمامي متلبسة البحر. هو عميق مثله، وجذاب مثله، وغامض مثله أيضاً.

مازالت هنا، وقفتُ أتأملها وكأني أطمأن على وجودها في مكانها. صخرة الروشة، ملتقى العشاق واليائسين،

والسكارى والمغامرين، والباحثين عن لحظة هدوء. هي تجمع الناس بكل ألوانهم ومستوياتهم، يستودعونها قصصهم، ويسرون إليها بمشاكلهم ويعترفوا أمامها بفشلهم ويذرفون دموعهم. أجيال مختلفة تلجأ إليها بحثاً عن متنفس، أو هرباً من روتين الحياة في كورنيش العشاق الذي تبدأ فيه حكايات العشق و فيه تنتهي، ولو نطقت هذه الصخرة بما شاهدته لملأت الدنيا بالأسرار والحكايات. في حضرتها يشرد الإنسان من همومه وآلامه وذكرياته، هي ملاذ للراحة وصفاء للذهن، وتحلو في حضرتها الفضفضة ورمي كل ما في القلب في قلب البحر الواسع.

كل شيء على حاله، ومازالت الروشة لوحة من التناقضات فهنا يجتمع الفرح والأمل والحزن واليأس. الناس يتنزهون، والأطفال يلعبون، والعشاق يتهامسون، والسياح يلتقطون الصور التذكارية. هي المكان الأمثل للهرب من ضغوطات الحياة، فالناس هنا يحبون قراءة طالعهم ويشترون بطاقات اليانصيب، ويخططون للسفر والهجرة، ويستمتعون بأكل الذرة أو الفول، وبتدخين السجائر، ومراقبة الناس.

هنا تتداخل الأحاسيس بشكل غريب وأنا نموذج جيد لهذا التداخل، فكآبتي وانكساري جعلتني أقصد هذا المكان الساحر، علني أجد الراحة التي أبحث عنها. أغمضتُ عينيّ وفكرة إنهاء معاناتي أمام هذه الصخرة لم تبتعد عني نهائيا.

تذكرتُ بكائي يوم عاد إلى وطنه، بكيتُ بانكسار كما لم أبكِ من قبل. شعرتُ بأن حياتي لم يعد لها معنى بعده، وأقسمتُ في فورة غضبي وحزني بإلقاء نفسي في البحر لأنضم للعاشقات اللاتي شهدت صخرة الروشة على نهاية قصصهن كما يتداول الناس.

ساعدني يا رب.

أغمضتُ عينيَّ، ومرت حياتي كلها أمامي في صور سريعة. أعترف بأني لست قادرة على تنفيذ القسم، تمنعني السعادة الطافحة على وجه أمي، والحفلة التي ستقيمها لي بمناسبة نجاحي، وربما إيماني بالله أيضاً. جلستُ على مقعد الصخر أراقب الصخرة الصامدة بجبروت أمام أمواج البحر، وشمس تشرين الأول محتجبة خلف الغيوم البيضاء والهواء اللطيف يداعبني. أحسستُ بأن الشجاعة تنقصني، وركبتُ سيارتي أمشي في شوارع بيروت بغير هدى، هاربة من كل شيء.

قادني اللف والدوران بلا هدف إلى ساحة النجمة في وسط بيروت، والشمس توشك على الغروب. مشيتُ وحدي والناس يتنزهون جماعات وبعضهم أزواجاً وبعضهم وحدهم مثلي. شعرتُ بقلبي يتهشم، وأنا ألقي بنفسي على مقعد مقهى داخلي هادئ بإنارته الخافتة الحميمة وإطلالته على الساحة. على أثير صوت أغنيات لبنانية كلاسيكية قديمة. طلبتُ

فنجان قهوة سادة وجلستُ أراقب الناس وأنا أفكر به، وأبحث عن وجهه بين وجوههم. أتذكره رغماً عني، أتذكر نظراته وهمساته وقبلاته، أتذكره بكل براءة وبكل جرأة. مازلتُ أعجز عن فهم مشاعره، فعندما أظنه عاشقاً يظهر كالصديق الحميم ويتصرف وفقاً لذلك، وعندما أجزم بأنه لا يحبني ولا يفكر بي كامرأة يفاجئني بلمسة يد تجعلني أثور على ظنوني فهو عاشق لا محالة. لم أستطع إبعاده عن تفكيري وهو الرجل الذي أحببته منذ النظرة الأولى ومازلت أحبه.

عرفتُ متأخرة بأنه لم يقرأني كامرأة البتة.

جاء النادل بالقهوة والماء، وضعهما على الطاولة وهو يرحب بي بحفاوة ويسألني إذا ما كنت أحتاج شيئاً أخر. شكرته وشربتُ رشفة قهوة ومرارة الوجع التي خلفها وليد تحرقني. أتذكر أيامنا ولقاءاتنا وأحاديثنا، وتحاصرني لمساته الحانية ونظراته الشغوفة المحبة. كلها كانت كذباً، فهو لم يحبني أبداً. ربما كان معجباً بشكلي الخارجي، يشتهيني ولم يتذوقني. يحب شعري البني الذي عشق أصابعه، وعيناي الخضراوان المائلتان للزرقة تقتلعان قلبه، معباية الجسم وأعجبه، أو أثيره كرجل.

كيف انتهت علاقتنا بهذه الطريقة القاسية؟

شربتُ رشفة من الماء البارد، وطافت ببالي ذكريات سفري إلى ميامي قبل سنتين ونصف السنة. يومها ودعّتُ والديَّ وشقيقتي في المطار ومضيتُ بصحبة صديقتيَّ.

***

توسطتُ فدوى ولينا بكل فرح وإثارة، فأنا أسافر إلى ميامي، المدينة الحلم بالنسبة لي، لأول مرة. شجعني والدي على السفر والحصول على شهادة الماجستير في التصميم الداخلي من جامعة ميامي العريقة، بعكس والدتي التي لم تحبذ فكرة ابتعادي عنها لكوني الصغرى. أمضيتُ إحدى عشرة ساعة - معلقة بين السماء والأرض - بالحديث مع صديقتيَّ وبشرب القهوة ومشاهدة الأفلام وقراءة بعض الكتيبات عن ولاية فلوريدا الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ويعود اسمها للكلمة الأسبانية فلوريدا وتعني عيد الزهور. تتألف فلوريدا من سبعة وستين مقاطعة، وتأوي قرابة مائتين وخمسين ألف مواطن أمريكي من أصول عربية. بها عدد هائل من المعالم السياحية وأهمها شاطئ ميامي الذي حلمت به كثيرا من خلال الأفلام الأمريكية، وشاطئي النخيل ودايتونا، وملاهي عالم ديزني، ومركز كينيدي للفضاء التابع لوكالة ناسا الفضائية، والجزر والحياة المائية النابضة بالمتعة والترفية. وتحظى بمناخ لطيف كونها محاطة بالمياه الدافئة للمحيط الأطلسي وخليج المكسيك، كما تتمتع بشمس مشرقة ومناظر

طبيعية خلابة وأنهار وبحيرات عديدة، ومن مدنها الكبيرة جاكسون فيل، وميامي، وتامبا وأورلاندو.

لم يغمض لي جفن من شدة الترقب والحماس لقرب وصولي إلى الحلم الذي يراودني منذ زمن، السفر والدراسة في ميامي، مدينة البحر والشواطئ البيضاء والشمس الذهبية وأشجار جوز الهند والنخيل والغابات الكثيفة والأبنية الشاهقة والهندسة البديعة. كم حلمتُ بالدراسة في مدينة تُقدر الفن والهندسة وتحترم إبداعاتها، لها أسلوب هندسي مميز يعرف ببساطته وخطوطه المستقيمة، ويخصص له شارع يعرف باسم Art Deco National Historic District تقديراً للفن الهندسي.

كم حلمتُ بالذهاب لاحتفالات السينما واستوديوهات التصوير هناك، ولقاء الممثل جورج كلوني وطبع قبلة على خده والتقاط صورة معه. يعجبني شعره الأشيب والرجولة الطافحة على وجهه، ودائماً أردد لصديقتي بأني أريد الزواج برجل يشبهه، وبررتُ بذلك رفضي لتودد الكثير من الشبان. كانتا تقولان بأني مراهقة كبيرة مازلتُ أحلم بنجوم هوليود، لكني عندما رأيت وليد نسيت كل ذلك.

***

يا رب، خُذ بيد قلبي.

تتالت أغنيات الوجع، لا أنت حبيبي ولا ربينا سوا، كل شي عمّ يخلص، في قهوة عالمفرق. خبأتُ وجهي بيدي ولم أتمالك نفسي وستريو المقهى يذيع تلك الأغنية التي لم تحتج لحزن ولوعة أكثر لتثير في نفسي المزيد من الأسى.

بيني وبينك يا هالليل في حب وغنية
على بابي بتقعد يا ليل ومنسهر ليلية
بيني وبينك في أسرار وبتعرف أحزاني
تبقى مرقلي ع هاك الدار وقلوّ ما ينساني

وضعتُ رأسي على الطاولة وبكيتُ، متناسية وجودي في مقهى بوسط بيروت، فلست في غرفة نومي لأبكي كما أريد. بكيتُ حسرة على تلك الأيام، وعلى السعادة المنقوصة والخادعة التي شعرتُ بها وقتها. أخرجني النادل من أفكاري، ومازلت أتذكر ملامح وجهه عندما رأى وجهي الغارق بالدموع. سألني إن كنت بحاجة إلى شيء، فقلت له وأنا أمسح دموعي بيدي: أنا تعبانة .. بدّي أنسى الدنيا. عرض عليّ شراباً روحياً، فزممتُ شفتي بصمت وفي اللحظة ذاتها وقعت عيناي على سيدة تدخن سيجارة وتشرب النبيذ. كانت في حالة غياب وتيه وعلى وجهها ترتسم اللوعة، فحرضتني على المزيد من الأسى، وطلبتُ من النادل أن يجلب لي كأساً من النبيذ وعلبة سجائر.

شربتُ رشفة أشعرتني بالحرقة في حلقي فوضعتُ الكأس جانباً. أخرجت سيجارة من العلبة، وجاء النادل بسرعة وأشعلها لي. بدأتُ آخذ منها نفساً يتلو الآخر والذكريات تأبى مفارقتي، وقلبي يبحث عن أجوبة لأسئلته. لماذا لم يبادلني الحب؟ ولماذا لم يقدّر مشاعري؟ لماذا أحببته دون الرجال؟ لماذا اندفعت في حبه رغم التحذيرات؟ ولماذا لم أتحكم بقلبي ومنعته من هذا الحب الذي زلزلني؟

ولكن، من يجيب على هذه الأسئلة؟

***

في ميامي، انقلبت حياتي رأساً على عقب.

هبطت الطائرة في مطار ميامي والشمس تستعد للرحيل. كان كبيراً ومزدحماً وصاخباً، ووجدت أخي إلياس وزوجته هيام في انتظارنا. كنتُ سعيدة وأنا أجلس في المقعد الخلفي لسيارته وأنظر لشوارع المدينة وأسأله عن كل ما أراه. وصلنا ضاحية كورال غيبلز السكنية الراقية في جنوب ميامي والقريبة من الجامعة التي سأكمل دراستي فيها، واخترتها لعراقتها فهي أسست في العام 1925م، كما أنها مؤسسة خاصة وراقية تجتذب شباناً وشابات من الطبقتين الوسطى وما فوقها، والممثل سيلفستر ستالون من أشهر خريجيها.

أفرحني قرب الحديقة العامة من البناية التي سنقطنها، كما أن شاطئ ميامي لا يبعد كثيراً ولن يستغرق الوصول إليه أكثر من عشر دقائق بالسيارة. كنتُ مجهدة لكن حماسي أنساني كل ما أشعر به من إرهاق وتعب. أودعتُ حقائبي غرفة نومي المطلة على الحديقة وذهبتُ بصحبة صديقتيَّ إلى شقة أخي لتناول العشاء.

هناك رأيتُ وليد لأول مرة، جالساً على الكنبة يشاهد التلفزيون ويلاعب ابنتي أخي ماغي ومايا. سلمتُ عليه والتقت عيناي بعينيه فشعرتُ بشحنة كهربائية تسري داخل جسمي. نظراته ذبحتني من الوريد إلى الوريد وسقطت أمام سحر ابتسامته. ظللتُ أحدق به طوال الأمسية وأستمع إلى أحاديثه. فرطت دقات قلبي عن إيقاعها المعتاد، وقلبي يخبرني بأني وجدت من أحلم به فارساً يأتي على حصانه الأبيض ويأخذني معه، سخرتُ عينيّ إلى النظر إليه وتساءلت من يكون؟

شغلني، وحيرتني لهجته المراوحة بين الخليجية واللبنانية، وعندما انفردتُ مع هيام في المطبخ وهي تعد طعام العشاء سألتها عنه، وأخبرتني بأنه مهندس سعودي من أمّ لبنانية، يعمل في ميامي منذ أكثر من سنتين. جلستُ على مائدة الطعام قبالته مستمتعة بمراقبته. وسيم بشعره البني الفاتح وعينيه الخضراويين الداكنتين وطوله الفارع وجسمه القوي، لافت وجذاب بحديثه الرصين وابتسامته الواثقة

ونبرة صوته المحببة والقريبة من القلب. لاحظتُ قربه من أخي وعائلته ومحبتهم وتقديرهم له. تحدثتُ معه قليلاً لكني لم أستطع الخوض في حوار معه لانشغاله بالحديث مع إلياس. بعد العشاء شاركنا شرب القهوة ثم ذهب لشقته، فعدتُ مع فدوى ولينا إلى شقتنا التي ساعد هيام في تأثيثها. رحتُ أتحدث عنه بإعجاب أدهش صديقتيّ، وبسرعة قمعت فدوى مشاعري ولفتت انتباهي للمحبس الفضي في يده اليسرى. كلامها لم يعجبني، وحاولتُ أن أقنع نفسي بشتى الوسائل بأنه أعزب، قلت لها: ربما ليبعد عنه النسوان .. غداً سأعرف كل شيء.

بدأت فدوى تتفلسف، فبرأيها إن الحب لا يأتي بسرعة ولا من النظرة الأولى، قد يكون إعجاباً أو انجذاباً لكنه ليس حباً، وكأنها تحكم مسبقا عليَّ بالفشل. قالت إن الحب الذي يأتي بسرعة يذهب بسرعة أيضاً، فتركتها وذهبت إلى غرفتي. قضيتُ ليلتي أفكر به، وبهذا الكم الهائل من الجاذبية التي يمتلكها، وبالصعقة الكهربائية التي أصابتني وشدتني إليه وجعلتني أتقبل جاذبيته كما هي بدون تفسير. شعرتُ بقلبي يرفرف ويطير نحوه بفرح، ويريد أن يحط في قلبه، حتى محبسه لم يفارقني.

***

تكسرت أجنحة قلبي.

حلّ الظلام وبدأ الناس يتوافدون إلى المطاعم والمقاهي والنوادي الليلية، يأكلون ويشربون ويدخنون الأراجيل. أغمضتُ عينيَّ لأمنعهما من البكاء مجدداً وقلبي لا يستطيع أن يطير ويرفرف. ليتني أنام وأصحو ناسية كل شيء، جموده وتسلطه وقسوته، والدمار الذي خلفه في نفسي. ليت قلبي يطيعني كما يطيعه قلبه، لأمنعه عن حبه، ولأعيد بناءه وتحصينه من جديد.

آه، كم أكره الشوق، وأكره الحب، وأكره ضعفي ونفسي أيضاً. عاودني البكاء وأنا أتذكر جلوسي معه في المطعم الإيطالي على شاطئ ميامي، والذي شهد على اعترافاته وانكساراتي. قال لي يوماً بأنه يتمنى أن تكون له سلطة على قلبه، ليمنعه عن حب زوجته التي خذلته عندما رفضت السفر معه وبقيت مع والديها. كيف علاقتهما الآن؟ هل رجع لها وكأن شيئاً لم يكن؟ هل تناسى قسوته عليها؟ هل تناسى انكساره من موقفها وما أحدثته في قلبه؟، وها هو يفعل ذلك معي. لا بد أنه سعيد معها، بجانبها يتحدث معها ويلاطفها، يقبلها ويعانقها، وربما يكون نائماً بجوارها بعد أن غمرها بأشواقه وحبه.

***

اندفاعي نحوه كان جنوناً، هوساً، انتحاراً.

استيقظتُ صباحاً على صوت جرس الباب، وهيام تدعونا لتناول الإفطار في شقتها. لبيتُ مع صديقتيَّ الدعوة. جلسنا على المائدة نأكل اللبنة مع الزيتون، والكعك والعصير. حدثتنا عن طبيعة الحياة هنا، أوقات الدوام الرسمية، وأنظمة المواصلات و سيارات الأجرة، ساعات العمل في الدوائر الحكومية والبنوك، والأسواق وأماكن الترفيه. كل أحاديثها لا تهمني فهي لم تقل شيئاً عنه، فقطعتُ حديثها وسألتها عنه: وليد .. ما هي حكايته؟. أخبرتني أنه جاء من السعودية منذ أكثر من سنتين، ويسكن في شقة صغيرة بجوارهم. أصبح قريباً منهم، ويقضي معهم أوقات فراغه ويخرج معهم للتنزه أحياناً. لم تخبرني هيام ما أريد معرفته، فهي لم تجب على السؤال الذي يدور في رأسي، ماذا يفعل المحبس الفضي في يده. بلعتُ ريقي وسألتها بتوجس:

- هل هو متزوج؟

أجابت وهي تنهض لإعداد القهوة:

- نعم .. لكن زوجته لم تأتِ معه .. بينهما مشكلات وهما شبه منفصلين .. نادراً ما يذكرها أو يتحدث عن حياته في السعودية .. لا يتحدث إلا عن أمه وعن حياته في لبنان.

يومها قالت لي بأن اسمها شمس، وهذه بداية معرفتي بزوجة الرجل الذي أحب كما لم تحب امرأة رجلاً من قبل،

وغريمتي الشرعية والمجهولة. شعرتُ بأني سأختنق والدموع تتشردق في قلبي، فأطفأتُ السيجارة وشربتُ القليل من الماء وغصة ألم تشعرني بالمرارة. تذكرتُ صورتها بجانب سريره. يا له من قاس، كيف استطاع أن يحدثني عنها وعن حبه وخيبته، برغم معرفته بحبي وولعي وجنوني به.

شربتُ رشفة أخرى من الماء ودفعتُ حسابي عائدة إلى منزل عائلتي في الأشرفية، قاعدة الميليشيات المسيحية اللبنانية وجزء من بيروت الشرقية خلال الحرب الأهلية. انتهت الحرب دون أن نعرف لماذا بدأت وكيف انتهت، ولماذا سقط هذا العدد المفجع من القتلى والجرحى والمعاقين والمفقودين، وبات عدد المغتربين هائلاً، وأصبحت الأشرفية اليوم منطقة سكنية وتجارية كثيفة، وواحدة من أهم مراكز التسوق في لبنان.

حييتُ أمي وجلستُ بجانبها، فسألتني بقلق: وين كنتي؟. أسندتُ رأسي على مقعد الأريكة ورحتُ أخبرها بجولتي البيروتية، فاطمأنت وراحت تحدثني بما فعلته أثناء خروجي. لم أكن معها سوى بعينيّ ولم أعِ ما قالته. أغمضتُ عينيّ للحظات، وعندما فتحتهما سالت الدموع منهما بخجل متلافية النظر إليها فعادت وسألتني بحنان ممتزج بالقلق: لماذا تبكي؟ .. شوّ بكي تقبريني. أطلقتُ تنهيدة من أعماق روحي وأنا أحدثها عن وليد، والجرح الموجع الذي تركه في

قلبي. زرع حبه في روحي كشجرة الأرز القوية التي تغلغلت جذورها في أعماق قلبي منذ مئات السنين ورحل. عاتبتني بلطف: ولوّ يا ميراي .. كيف تبكين على رجل لم يكن مناسباً .. انسيه.

زممتُ شفتيَّ ولم أنطق بحرف، فزواجه والفروق الأخرى لا تهمني ولم تشكل عائقاً أمام اندفاعي نحوه. لم يكن رجلاً والسلام لأنساه بهذه السهولة، قد يكون غير ملائم لأمي كونها من عائلة متدينة تحلم بزواجي في الكنيسة وبمباركة الرب، أما أنا فكان ملائماً لي وشعرتُ بأنه يكملني، ويأخذني إلى أخر الدنيا بنظرة من عينيه وبكلمة يعيدني فهو الرجل الاستثنائي في حياتي. لم تتفهم أمي مشاعري فتركتها وذهبتُ إلى غرفتي، المكان الوحيد الذي أجلس فيه بصحبة ذكرياتي ودموعي وهواجسي بأريحية. استلقيتُ على السرير وأخرجت صورته من تحت الوسادة ورحت أتأمله، كم أبهرني بجاذبيته الساحرة، وعذبني بتصرفاته الغامضة معي. أعدتُ الصورة إلى مطرحها حالما دخلت أمي وبيدها كأس من الماء، قدمته لي وهي تدعوني إلى التماسك. شربتُ رشفة ووضعتها جانباً، فأمسكت بيدي وراحت تواسيني أو تأخذني على قدّ عقلي: ستنسيه .. وبعد ذلك ستضحكين على نفسك وتأسفين على دموعك .. فالوقت كفيل بكل شيء.

ألقيتُ رأسي في حضنها وبكيتُ بألم كما بكيت يوم رحيله. حاولت احتوائي فراحت تهدئني وتصلي من أجلي

ليساعدني الله وأنسى حبي الجامح لوليد الذي لا تعرف عنه سوى الفوارق بيننا، وصورته المخبأة تحت وسادتي. ضمتني إلى صدرها، وتشفعت بالسيدة العذراء لتساعدني على مواجهة سلطان الحب الظالم. يبدو بأنها تعودت عذاباتنا فهاهي تواسيني كما فعلت لأختي ساندرا قبلي، برغم رفضها لذلك الشاب ومعارضتها الشديدة لارتباطهما إلا إنها كانت تحاول أن تحتويها وتحيطها بعاطفتها.

***

اجتاحني الحنين بقوة.

وأنا أقف أمام مبنى كلية الهندسة والعمارة في الجامعة الأمريكية في بيروت، المكان الذي درستُ به لخمس سنوات وتخرجتُ منه مهندسة متفوقة أخطط لإكمال دراستي في الخارج، وعندما أعود حاصلة على درجة الماجستير ألتحق بأعضاء هيئة التدريس ثم أفتتح لي مكتباً هندسياً يحمل اسمي. كانت أحلامي بريئة وخالية من أي رجل وقتها. رفضتُ تودد كثيرين من زملائي فمواصفاتهم لا تنطبق على فارس أحلامي، ولخوفي أن تقف عاطفتي عائقا أمام طموحاتي، فأنا متطرفة وأذهب في كل شيء إلى أقصاه، في الطموح والفرح والحزن والحب واليأس. لم يعجبني ريمون، ولا زياد، وأخرهم كان شارل. لم أجد من أعطيه العلامة الكاملة عشرة على عشرة بينهم، ووجدتها في الرجل الخطأ،

وليد الذي عشقته بسرعة الضوء أو الصوت أو أي شيء آخر. فما أن مرت أسابيع حتى أضحيت عاشقة متيمة بحبه.

حدثته عن نفسي، مولدي في الحادي والثلاثون من آب من العام 1975م، وعن طفولتي التي قضيتها في مدينة جبيل بين البحر والجبل وعبق التاريخ. حدثته عن علاقتي بأخوتي، حيث كنت دائماً أشكو لوالدي غيرتهم مني لأني الصغرى والمغنَّجة، علاقتي المميزة بأختي ساندرا التي تكبرني بأربع سنوات فقط. انتقلنا إلى الأشرفية لظروف عمل والدي، وعشتُ طفولتي ومراهقتي تحت حكم الدم والدمار في سنوات الحرب الأهلية. لا يمكنني أن أنسى خوف والديّ علينا، وانقطاع التيار الكهربائي واختبائنا في الملاجئ، وأصوات طلقات الرصاص والقنابل والتفجيرات والقنص، مدارسنا التي كنا نلتحق بها والخوف يحيطنا من كل اتجاه، حاجاتنا التي نخرج لشرائها في وقت وقف إطلاق النار، أمنياتنا أن نسهر في ليلة عيد، أو نحضر حفلة موسيقية ونكون متأكدين بأننا سنرجع إلى بيوتنا سالمين. تلك السنوات مازالت تعيش في أعماق روحي ككل اللبنانيين الذين عاشوا هذه الحرب الشنيعة. تشبعت ذاكرتي بتلك الصور فأصبحت تلاحقني، وأستعيدها رغماً عني وأنا أرى عودة بيروت عاصمة الحرف والقصيدة والحق والكتاب، وقيامة لبنان من براثن الكراهية والاقتتال ليعود أيقونة العرب ومصيفهم الجميل، وملتقى الحضارات وبلد الفن والجمال والأناقة، فهو كطائر الفينيق الذي تقول الأسطورة

أنه يحترق مرة كل خمسين عاماً ويقوم نافضاً رماده بعد ثلاثة أيام.

وطني، لبنان، المتعطش للحرية والسلام بعد أن أنهكته الحروب، وتهديدات إسرائيل وجنونها وحقدها الذي ترمي به بين فترة وأخرى. بحاجة لحب اللبنانيين له ولتمسكهم به، ولتكاتفهم ووحدتهم في مواجهة الأحداث الأمنية والاغتيالات الناجمة عن جنون أحلام رجال السياسة. لبنان الأخضر الحلو، بحاجة لرجل سياسة قاطع مثل العدل، منحنٍ كالتواضع، وبحده الفاصل خلاص لبنان، وكم يشبه قلبي.

محا وليد تلك السنوات، وأشعلني بنار حبه.

أصبحنا صديقين بسرعة، وشعرتُ بأني أعرفه منذ سنوات. أحب صحبتي، وأخبرني الكثير عن حياته في لبنان والقليل عن حياته في السعودية. أحببته كل يوم أكثر عن اليوم الذي يسبقه. كنا نتشارك فنجان القهوة صباحاً قبل أن يذهب إلى عمله، وأنا أذهب إلى الجامعة مع صديقتيَّ. أعود من الجامعة بعد الظهر وأرتاح قليلاً ثم أذاكر بجد حتى عودته. عودني أن يأتي لرؤيتي فأطمئِن عليه وعن سير العمل ثم يذهب لشقته ليرتاح، مساءً يشاركني في فنجان قهوة قبل ذهابه إلى المكتب الهندسي الذي يعمل به. أحببتُ قربي منه، وهو أحب ذلك أيضاً، نخرج للجلوس في الحديقة مساءً، أو نتمشى على ضفة نهر ميامي المار في قلب المدينة

والذي يشكل متنفساً جميلاً للسكان، وأحياناً نمشي أمام مرفأ اليخوت الفاخرة، وفي الشوارع الرئيسية كشارع لنكولن. كنا نتحدث في أمور شتى، في الهندسة والحياة والفلسفة والسياسة والأديان. حدثني عن سماحة الدين الإسلامي برغم التطرف الذي يتسم به المسلمون الآن. هو منفتح لأن والدته مسيحية علمته تطبيق إيمان المسلمين بالأديان السماوية السابقة، ودائماً يقول بأنه يحب عناق الآذان وأجراس الكنيسة. يحتفل معنا بالمناسبات الدينية، ويشاركنا في فرحنا في عيد الفصح والميلاد المجيد ورأس السنة، ويشاركنا في الصوم الكبير. كنتُ أشاركه مناسباته، وأحترم طقوسه الدينية. أتجنب تناول الطعام أمامه في نهار رمضان، وأحياناً أؤجل وجبة الغداء لموعد الإفطار.

لم يكن لقلبي همّ غيره.

معه تعرفتُ على ميامي، متاحفها، مقاهيها، مسارحها، شوارعها. زرتُ استوديوهات تصوير الأفلام السينمائية ولم تخطر ببالي رؤية جورج كلوني. كنا نخرج كل أحد لوحدنا أحياناً، وأحياناً ترافقنا فدوى ولينا. نذهب إلى الشاطئ للتنزه، ويضحك إذا طلبت منه أن يغمض عينيه عن النساء بملابس البحر. كنا نتسوق معاً، يختار لي الألوان التي يراها مناسبة لي، وأنا أهتم بأناقته واختار له ربطات العنق. أوبخه إذا ذهبت لزيارته ورأيت رسوماته وأوراقه وملابسه مبعثرة، ويقابل توبيخي بابتسامة طفل لا يطيع أمه. أحسستُ

نفسي مسئوولة عنه، أسأله يومياً إذا ما تناول غذاءه في الشركة كعادته، وإذا لم يكن لديه عمل مسائي أدعوه لتناول العشاء إذا أعددتُ، أنا أو صديقتيّ، أطباقاً خفيفة كالباستا أو صحن تبولة أو أي طبق لبناني يذكرنا بطعم الوطن. كان يحب العمل كثيراً وفي إجازته السنوية يضاعف ساعات عمله في المكتب. كثيراً ما تحايلت عليه إلى السفر لولاية أخرى، لكنه يتعذر بالعمل وبانشغاله. يذهب إلى نادِ صحي يومين في الأسبوع للحفاظ على لياقته.

أدركتُ متأخرة أن ساعات عمله الطويلة، كانت هروباً مني ومنها.

***

عليَّ ألاَّ أفكر فيه، وماذا أفعل؟

خرجتُ من الجامعة بعد أول يوم عمل لي متوجهة إلى وسط بيروت، وإلى ذلك المقهى الذي أحببت الجلوس فيه بصحبة ذكرياتي. جلستُ إلى الطاولة نفسها، وأخرجت علبة السجائر من حقيبتي وأنا أفكر بهذا الخدر اللذيذ الذي يتركه أثرها في نفسي. هي رفيقة جيدة لتهييج الذكريات ولا تساعد على النسيان أبداً كما يقولون. أشعلتُ سيجارة على صوت موسيقى البيانو الحالمة وبدأت أنفث الدخان والأفكار. هل يتذكرني؟ أم أنني امرأة لا معنى لها ولا صورة أو اسم مرت

بحياته. راهنتُ على رجل، ولم أعرف أن لعبة البوكر هذه خاسرة دوماً. أريد أن أنساه وعقلي يبحث عنه، وقلبي يطارده فأين المفر؟، ومع السيجارة الثالثة راودتني فكرة السفر إلى ميامي مرة أخرى.

كنت أضحك على نفسي وأحتال عليها.

أخرجني اتصال فدوى من دائرة أفكاري المغلقة حوله، وذهبتُ لزيارتها. جلستُ معها ساهمة، وأنصت لأحاديثها بلا اهتمام. حدثتني عن عملها الجديد في الشركة الهندسية، وعن علاقتها بزملائها، ثم راحت تناقش الأوضاع السياسية كحال كل اللبنانيين. تخبرني عما قاله هذا الزعيم وعمّا صرح به الآخر. صارحتها بفكرة السفر مرة أخرى، فلن أبقى بهذه الحالة. أحاول بشتى الطرق ألاّ أعطي نفسي وقتا لأفكر به، وألاّ أسمح له بلحظة يتسلل فيها إليّ. أقود سيارتي وصوت الراديو مرتفع لأشتت تفكيري. في الجامعة أعمل بجهد مكثف، وفي أوقات فراغي أقرأ في كتب الهندسة. أزور أختي مساءً ونخرج معاً، وإذا بقيت في البيت أشاهد التلفزيون حتى يداعب النعاس أجفاني. برغم ازدحام يومياتي إلا أنه يجد طريقاً ويتسلل عبرها إلى زوايا قلبي ويثير عاصفة حبه مرة أخرى لأعيش الولع نفسه والعذاب نفسه واليأس نفسه. لم تتشفع لي طقوس النسيان، وعليّ أن أشغل نفسي أكثر عوضاً عن التفكير فيه وبالحب الذي أعلنته عليه بعد ثلاثة أيام من لقائنا الأول.

ليلتها وقفتُ عند النافذة أراقب الحديقة وحركة الناس وهم يخرجون منها. الشوارع شبه خالية ورأسي مزدحمة بالأفكار، ووليد يشغلني. تساءلت مع نفسي، لماذا أفكر به وقد عرفته تواً. استرجعتُ وقتها كلام هيام بأنه متزوج. أحسست بالألم وأنا أتذكر محبسه الفضي في يده، وكم تمنيتُ لو أرميه في نهر ميامي. أطبقت جفنيّ بصعوبة، واستيقظتُ مبكراً بنشاط كبير فقد كنت على موعد معه ليصطحبني مع صديقتيَّ إلى الجامعة لنستكمل إجراءات تسجيلنا ودفع الرسوم. تزينتُ وذهبتُ إلى المطبخ لأعدّ لي فنجان قهوة بينما تستعد فدوى ولينا. رن جرس الباب فذهبت لفتحه بسرعة. دعوته لشرب القهوة معي، وأخبرني لاحقاً بأنه أدمن طعمها. ذهبتُ معه بصحبة صديقتيَّ، وجلستُ بجانبه في سيارته الحمراء القديمة وقلبي يدق بسرعة كما تدق إيقاعات الروك أند رول. أنهينا الإجراءات بسرعة عاندني فيها الوقت الذي تمنيته أن يطول وأن تصادفنا بعض العوائق لأبقى بصحبته وقتاً أطول، لكنني في أمريكا ولا تأخير هنا.

ودّعنا أمام البناية عائداً لعمله، فظللتُ أراقبه حتى اختفى عن عينيَّ، وفي تلك اللحظة أعلنتُ لصديقتيّ وللشمس والسماء والدنيا بأني أحبه. نعم، أحبه وهو حائر لا يعرف إذا كان يحبني أم لا، ويجهل حقيقة مشاعره نحوي. خائف مني ويدّعي بأنه خائف عليّ، يظلمني ويقول بأنه لا يحق له أن

يحبني. تنهدتُ وقلتُ لفدوى: ما زلت أتذكر كل شيء .. حتى عتابك لي.

***

أطلب النسيان وأخاف منه.

استيقظتُ من نومي صباحاً، وأمي تطلب مني الذهاب معها لحضور قداس الأحد، علّ العظة والصلاة تسموان بروحي عن قضايا قلبي العاطفية. اتخذتُ لي مكاناً بين المؤمنين وصليتُ بخشوع، (أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء، كذلك على الأرض، وأعطنا خبزنا كفاف يومنا، واغفر لنا ذنوبنا وخطايانا، كما نحن نغفر لمن أساء إلينا، ولا تدخلنا في التجارب ولكن نجنا من الشرير، لأن لك المُلك والقدرة والمجد إلى أبد الدهور. أمين). طلبتُ من الرب أن يرأف بي ويمنّ عليّ بالنسيان، فسأفقد عقلي إذا بقيتُ بهذه الحالة. أفكر به وأسأل نفسي إذا كان يتذكرني، وبماذا يشعر إذا مررتُ بباله؟ وهل أنا أمر بباله أصلاً؟ أيضع تصوراً لحياتي بعده وهو شاهد على انهياري عندما قرر التخلي عني والعودة لها؟

كم هي كثيرة الأسئلة التي أريد طرحها عليه لو قابلته؟

تناولتُ جسد يسوع مغموساً في دمه، يتجلى في قطعة خبز رقيقة مغموسة بالخمر بعد أن حلت فيها روح الله بفضل صلوات الكاهن الذي مسح على رأسي. شعرتُ بسريان سر المسيح في روحي، تثبت فيَّ وتثبتُ فيه. عدنا إلى المنزل حالما انتهى القداس فاليوم يجتمع ما تبقى من أفراد العائلة على مائدة الغدّاء. بعد الظهر ذهبتُ كي أشرب القهوة مع صديقتيَّ في أحد مقاهي شارع الحمرا المختزن لذاكرة اللبنانيين في مطاعمه ومقاهيه ومكتباته وأسواقه، وتجمع المثقفين فيه قبل الحرب. هو شاهد حيّ على قوة بيروت الثقافية، المدينة الجبارة والشامخة بعز وعنفوان برغم كل ما أصابها.

تجولتُ أراقب الناس، وخيالي وأنا طالبة في الجامعة يظهر لي في كل مكان. مرة أبحث عن كتاب، ومرة أتناول غدّائي في يوم جامعي طويل، ومرة أشرب فنجان قهوة غير شكل هنا. ذهبتُ معهما لحضور فيلم سينما، وقضيتُ معهما وقتاً خفف من ذبول أوراق قلبي فلكل شيء هنا نكهة أخرى. وما أن عدت إلى المنزل حتى فاجأني اتصاله مرة أخرى بعد هذه السنوات، وكان آخر لقاء بيننا قبل سفري بمدة.

ألم ييأس شارل مني؟

كان زميلي في الكلية ذاتها ويسبقني بعام واحد. أراه من بعيد في ردهات الجامعة. لم تكن لي علاقة به برغم وجود

أصدقاء مشتركين بيننا بدأوا يخبرونني عن حبه لي. كان يلقي التحية عليّ فأردها، وظلت علاقتنا هكذا حتى تعمد الرسوب في عدد من مواده الدراسية ليعيد سنته معي فأصبحنا في صف واحد. لم يشفع له ما فعله لدى قلبي برغم إشفاقي عليه. توسط الكثيرون بيننا ولم ينجح الأمر فلم أكن مستعدة للحب وقتها. كنت أفكر بدراستي فقط، وقضايا الحب مؤجلة حتى ألتقي بشبيه جورج كلوني برجولته الطاغية.

أخبرني شارل بأنه التقى بصديقتي لينا صدفة قبل أيام وعرف بعودتنا من ميامي. لم تخبرني المحتالة بذلك وقد كنت معها طوال بعد الظهر. دعاني للخروج معه فاعتذرتُ بلباقة، متعللة بانشغالي، وأمام إصراره وافقت على لقائه في أحد مقاهي الروشة في اليوم التالي.

وصلتُ قبل الموعد بوقت غير قصير، فذهبتُ أراقب صخرة الروشة في الليل. وقفتُ قبالتها ويداي ممسكة بالسياج الحديدي، وأفكاري مبعثرة في أصقاع الدنيا. اقتربت مني امرأة محجبة تسألني قراءة طالعي، ولا أدري لماذا وافقتها رغم معرفتي بأن ما ستقوله محض أكاذيب. مددتُ لها يدي اليسرى وراحت تدقق النظر في خطوطها. قالت لي: لا تغمضِ عينيك عن الرجل الذي يحبك .. هو بانتظاركِ ومستعد لفعل أي شيء لينال رضاك.

لا أدري ما الذي أحدثه كلام تلك المرأة فيّ. هل تقصد شارل الذي سألاقيه بعد قليل أم تقصد رجلاً آخر، وهي بالتأكيد لا تقصد وليد. أحست تلك المرأة بملامح الدهشة التي لونت وجهي فراحت تكمل: أنت تبحثين عنه وهو قريب جداً. أرادت أن تستمر أكثر لكني طلبتُ منها التوقف، وأعطيتها ما تريد من الليرات وذهبتُ إلى المقهى. وجدتُ شارل ينتظرني، بدا مشتاقاً ومتأملاً أن يجد عندي بادرة أمل. لكنه أحس بجمودي عندما مددتُ له يدي محافظة على مسافة كافية بيننا، وتعمدتُ إخباره بعلاقتي بوليد حالما سألني عن ميامي. لم تنساني دموعي وقتها فغلفت عينيّ، وحجبت عني رؤية آثار ما قلته على ملامح وجهه. قلتُ له وصوتي يتهدج ويدي تبحث عن السيجارة في حقيبتي: ذهبتُ إلى ميامي بشغف لأنساق وراء مصيري .. هناك التقينا وعشقته للحد الذي أوصلني لهذه الحالة الصعبة.

أنا وقلبي في حالة حرب.

مسحتُ دموعي وتابعتُ حديثي غير آبهة لملامح الصدمة التي كست وجهه. ربما، لم يتوقع أن ينتظرني كل هذا الوقت لأتي وأحدثه عن رجل آخر جعلني غير صالحة للحب بعد أن اجتاحني حبه ودمرني. تمنيتُ له حظاً سعيداً، وطلبتُ منه ألاّ يفكر بي ولا يتصل بي مرة أخرى.

***

أتحكم بمشاعري!

كيف يطلب إلياس مني هذا الطلب، فما كنت أشعر به حيال وليد لم يكن عاطفة عادية مستهلكة. أحبه، وليست كلمة أقولها، أو أغنية أغنيها فلقد حرقتُ مراحل الحب بسرعة ووصلت إل الغرام. أنا لا أفكر إلا فيه، أشعر بسعادة بالغة معه وأتمنى ألا ينتهي الوقت الذي يجمعنا. أشتاق إليه، وأرغب برؤيته ما أن يغيب عن عينيّ، وعندما أكون معه لا تهمني الدنيا بكل ما يحدث فيها. يومها كنتُ مع هيام أحدثها عنه بسعادة عندما أخبرتني بأن أخي لاحظ ولعي به، وطلب منها تذكيري بأنه رجل متزوج تجمعه معي الاختلافات. قالت لي: يريدك أن تكتفي بالصداقة البريئة. انفعلتُ:

- أنا راشدة ولا دخل له بمشاعري .. لقد راهنتُ عليه وسأربح بكل تأكيد.
- وشو ناطرة منو؟

أغمضتُ عينيَّ وتنهدتُ بعمق. لا أعرف بم أجيبها، فأنا لا أعرف ما أريده منه ولا ما أنتظره. أتذكر اعترافي بحبه أمامها أول مرة، يومها قبّلت جبيني ودعتني للنضال والصلاة ليمدني الله بالقوة، والآن أخذت جانب زوجها وتطلب مني السيطرة على مشاعري. تضايقتُ كثيرا وشعرت هيام بذلك، فعاودت القول بلطف: أعانك الله على هذا الحب.

كان وليد رجل التناقضات بحق، رقيقاً حد القسوة، مُحباً حد الجفاء، صاخباً حد الرصانة، وحنوناً حد الحقد. أخبرني حكايته مجتزئاً منها سنوات زواجه بشمس. يعتبر السنين التي عاشها مع أمه الأحّب على قلبه، وذاكرته تعج بالصور واللحظات الحلوة لتلك الأيام. أما السنوات التي عاشها مع والده فيعتبرها الأسوأ. قال لي مرة بأنه مدين لأمه بحياته، فهي صنعته ووالده حاول هدمه. كان ودوداً ولطيفاً لكن شخصيته الصعبة والأزمات التي مر بها في حياته، ولم يتخطاها، وقفت حائلاً بينه وبين الناس فيتسرعون ويتطرفون بالحكم عليه.

أتذكر عندما كنت أنا وصديقتاي على موعد معه في أحد نهارات الأحد للذهاب في مشوار بحري مع هيام وابنتيها. ركبنا يختاً في المارينا وتعرفنا على معالم المدينة من وسط المياه. بدا منفتحاً يتحدث ويضحك معنا، وخلال لحظات شرد بأفكاره وذكرياته بعيداً، وكأنه غاص في أعماق نفسه وماضيه وحياته. حط اليخت على ضفاف جزيرة فيشر الغارقة وسط المياه، وبقي في مكان آخر وكأنه ليس بيننا. أدهشتني الجزيرة الشبه استوائية بجمالها الأخاذ، بها عدد من المنتجعات والفيلات المميزة وسط الأشجار المعششة. تجولنا وتناولنا مشروبات باردة في مقهى الفندق الوحيد هناك. ظلّ وليد في حالة الغياب، وفي طريق عودتنا قالت لينا عنه: هو مهضوم .. لكنه معقد وغامض.

***

خرجتُ من مركز التجميل بصحبة أختي ساندرا بعد أن انتهينا من وضع لمسات الماكياج وتزينا. ذهبنا مباشرة إلى المطعم الذي يقيم فيه والداي الحفلة بمناسبة عودتي بنجاح. يا لهذه الحفلة اللعينة فبسببها ألغيتُ فكرة الانتحار التي اعتملت برأسي يوم ودعني وليد وعاد إلى بلده. في المطعم التقيت بصديقاتي وقريباتي. كل واحدة برفقة زوج أو حبيب أو صديق. جاءت فدوى بصحبة بشير الذي تعرفت عليه مؤخراً، ولينا تعيش قصة حب مع كريم أحد زملائنا القدامى، وأنا وحيدة لا يرافقني غير خيال رجل أحاول أن أنساه، ويحاول الجميع محوه من قلبي. لكن وجود شارل بين الحضور كان مفاجأة. من دعاه إلى الحفلة، أهي لينا أم فدوى. أقترب مني مهنئاً ونظارات أمي تراقبنا فعرفت بأنها وراء حضوره. قدم لي باقة ورد فشكرته ولم أستطع إخفاء استيائي من تصرفات أمي الغريبة.

ماذا يدور في رأس أمي؟

هي تعرف بأنه لا يعني لي شيئاً، فأنا أحترق من حب رجل لاقيته بقلبي، ويسكن في عيني وينام متوسداً روحي. رافقني وليد في الحفلة. تارة يضمني، وتارة يقول بأنه يحبني، وأخرى يهوي عليّ بالقبلات ويصرخ أمام كل الناس

بأنه جاء من أجلي. انتهت الحفلة وعدت إلى غرفتي ولذكرياتي ولخيالاتي. نمتُ بصعوبة بعد أن ابتلعتُ حبة منومة، واستيقظتُ ظهراً. أحسستُ بالاختناق واللوعة تعتصر قلبي. أريد أن أتحدث عنه، أن أبوح لأحد بما يجول في قلبي، وعما حدث في ميامي وما لم يحدث.

دخلتُ معتقل الكآبة عدة أيام بعد سفر وليد. تصلني أخبار الدنيا متأخرة وتمر عليّ مرور الكرام، وأنا في هذه الزنزانة الضيقة والمظلمة. أحداث الحادي عشر من أيلول بكل فظاعتها وضخامتها وتأثيرها مرت عليّ وكأنها طلقتا رصاص طائشتان، فلقد ضرب وليد قلبي بطائرتين وفجره في ميامي كما فجر بن لادن مركز التجارة العالمي في نيويورك.

لقد صنعتُ من جنوني قصة حب خرافية ومستحيلة.

ولأن وجع المرأة لا تحسه إلا المرأة، ذهبتُ إليها. من غير ساندرا تسمعني وتتفهمني، فهي عاشت حباً مخنوقاً وصعباً، وعرفت الدموع والسهر، وفكرت بالانتحار من أجل الحب وبسببه. شاركتها في فنجان قهوة ولوعة. حكيت لها الحكاية كاملة فمطت شفتيها وقالت: ليك .. بلا حُب بلا بلوط.
استغربتُ كلامها:
- كدتِ تموتين من أجل ....

قاطعتني ولم تدعني أكمل، فهي لا تحب الحديث عن تلك المرحلة من حياتها. أكدت لي بأنها الآن امرأة متزوجة وسعيدة مع زوجها وأولادها وحياتها على أحسن ما يرام. لكني لا أستطيع أن أكون مثلها، أحبت رجلاً وأبدت استعدادها لتحدي الجميع، ثم تخلت عنه وعن عواطفها وتزوجت بأخر. عادت وقالت لي:

- بيعيه مثلما باعك.
- لا أستطيع بيع مشاعري وذكرياتي.
- لقد عاد لزوجته و لا يتذكرك وأنت تبكين عليه .. اصطفلي.

لم تعاتبني ساندرا لانجرافي بحب وليد صاحب الشخصية الصعبة والمركبة، ويحمل ثقافتين مختلفتين. أعرف بأنها ستعارض أي ارتباط بيننا، فهي تعرف معنى الزواج المختلط وآثاره المزلزلة. فعندما أرادت صديقتها الحميمة الزواج برجل مسلم قبل عدة سنوات، لم توافق عائلتها واضطرت آخر الأمر إلى الزواج به خطيّفة، وطلبت الطلاق بعد أقل من سنة لأنها لم تستطع مواجهة سيل المشكلات التي لم تنتهي إلا بالانفصال. هي تستمع لي الآن وتتفهمني لأن علاقتنا منتهية، فحتى لو عارضتني أو وقفت بجانبي الأمر واحد. هي تلومني لضعفي أمام ذكرى رجل لم يقدّر عاطفتي ولم يحترمها، فعليّ أن أنساه وأبدأ حياتي من جديد. عليّ أن أكون قوية مثلها، تصدت لمشاعرها وحكّمت عقلها راضخة لضغوط العائلة. تركت حبيبها لأنه شارك في

الحرب الأهلية وله يد في مقتل عمي الذي كان ناشطاً سياسياً ونائباً في البرلمان. رفض والدي زواجهما، وقال لها جملته التي جعلتها ترمي بقلبها في البحر كما تقول: أوافق أن تتزوجيه شريطة أن تذهبي للمحكمة وتغيري اسم العيلة .. وتنسي إنك ابنتي.

***

ذهبتُ إلى المركز التجاري في الأشرفية بعد خروجي من الجامعة، قاصدة متجر الموسيقى لأبحث عن أسطوانة السيدة فيروز، فمنذ البارحة وأنا أريد أن أستمع إلى الأغنية التي عصرت قلبي في ميامي، وجعلتني أبكي وأنا سارحة بأفكاري وخيالاتي. هي تعبر عني، أحببتُ وليد بلا أمل، وراهنتُ عليه بلا أمل وأعرف بأني خاسرة. ذلك اليوم أخبرني بأنه سيعود إلى بلده بعد أن أفتتح رجل أعمال سعودي فرعاً للشركة التي يعمل بها في مدينته الخُبر الواقعة على شاطئ الخليج العربي. شعرتُ بأني أعيش كابوساً وأتمنى لو أستيقظ منه، لكن الكابوس لم ينتهِ ومازالت أعيش فصوله.

مشيتُ بسيارتي في شوارع بيروت، وقلبي يغني مع فيروز أهواك بلا أملِ. كان ذنبي حقاً فلو حكمتُ عقلي قليلاً وسيطرت على قلبي ومشاعره المتهورة. لو استمعت إلى كلام أخي ونصائحه ولم أتمسك بعنادي، ولو أخذت بمحمل

الجد تعليقات صديقتيَّ وانتقاداتهما ولومهما. كانوا يعرفون ما ستؤول إليه علاقتي به وأنا كنت المغفلة الكبرى.

***

يبدو بأن الخسارة تلاحقني في الحب، وفي النسيان أيضاً.

جاءني القبول من جامعة ميامي للالتحاق بالدراسات العليا لتحضير الدكتوراه أواخر أيار، بعد أن قضيتُ عدة أشهر في معركة طاحنة ومستنزفة مع النسيان وخسرت. أنقبض قلبي وأنا أمام شاشة الكمبيوتر وأقرأ الرسالة عبر بريدي الالكتروني. ركضتُ لأمي أخبرها، لكنها استقبلتني برفض وانفعال. قالت غاضبة:

- يكفينا ما جاء من ميامي .. هل ستقضين حياتك في الدراسة والسفر .. ألا تفكرين بالزواج؟ .. ألا تحلمين بالأمومة؟
- ماما ...

بلعتُ ريقي بغصة، لا أعرف ما أقول لها، فأردفت: لما لا تستسلمين؟ .. لن تجديه هناك. زممتُ شفتيّ وقلتُ لها بحزم: سأسافر لأكمل دراستي، وأعرف في قراره نفسي أنها رحلة نسيان فأنا عنيدة منذ صغري وأتمسك برأيي حتى وأن وقف الكل أمامي. مبادئي وقراراتي مقدسة، صبورة عاطفياً ولا أشتكي لأحد، ولا آخذ بنصائح الغير وصوتي هو

المسموع. أكابر وأكافح من أجل الحصول على ما أريد، مهما كانت النتيجة، فأنا أعمل بقناعاتي لا بمصالحي.

اتخذتُ قراري النهائي بالسفر إلى ميامي ولم يستطع أحد إقناعي بالعدول عنه. ساندرا بذلت جهداً معي ولم تفلح، وسألتني بصراحة إذا ما كنت أمهد للهجرة مع أخي الذي لا ينوي العودة، كآلاف الكفاءات والأدمغة التي تسافر للخارج هرباً من الوضع الاقتصادي والسياسي الغير مستقر، فكل عائلة لبنانية لها عدد من المغتربين في أرجاء المعمورة. قلتُ لها بثبات أني سأسافر لاستكمل دراستي، وأنسى وليد في المكان الذي عرفته فيه.

بدأتُ الاستعدادات الفعلية للسفر، واستقطعتُ إجازة من الجامعة. حصلتُ على تأشيرة دخول الولايات المتحدة الأمريكية، واشتريتُ تذكرة الطيران، حتى سيارتي بعتها فعندما أعود سأشتري واحدة جديدة. ظلت أمي تحاول ثنيي حتى في ليلة سفري. ليلتها بقيتُ في المنزل بصحبة والديَّ وأنا حزينة وساهمة، وفي الوقت ذاته متمسكة بقراري وأجد له المبررات. لن أبقى في بيروت وأنا بهذه الحالة، أيامي تمر ولا أشعر بها. لم أنسَ وليد، ومازالت أخفي حنيني له والأشهر الماضية لم تشغلني عنه. أنا متيقنة بأن حياتي بدونه صعبة، وسأظل أهرب منه ومن الذكريات، والحل هو السفر فربما تهدي ميامي إليّ شيئاً هذه المرة، وقد تأخذ مني حبه كما منحتني إياه.

اكتفى والدي بالصمت بادئ الأمر، فهو لا يمكن أن يقف في طريق طموحاتي الدراسية، لكن أمي شدّت بالكلام وهي تشكي بعد أولادها عنها، قالت بحرقة: أيجب أن يكون كل واحد منا في بلد لنصبح عائلة لبنانية نموذجية. لم أدعها تؤثر عليّ عاطفياً فسكتُ وذهبت لغرفتي. استلقيتُ على السرير، وكل دقيقة أشعل ضوء الأباجورة لأتأمل ملامح وليد في الصورة التي مازلتُ أخبئها تحت وسادتي. سأسافر غداً إلى ميامي، وربما أجد لدى أخي خبراً عنه. سأسافر برفقة الأفكار والذكريات والعذابات، وهاتف خلوي يصلني بكل العالم عداه هو.

***

ماذا يحدث لك يا قلبي؟

حلقت الطائرة متوجهة إلى ميامي وأنا وحدي هذه المرة، ولن أجده لأحبه منذ النظرة الأولى. وصلتُ إلى مطار ميامي ووجدت أخي وزوجته بانتظاري تماماً كالمرة السابقة. ذهبتُ معهما إلى كورال غبيلز. وجدتُ كل شيء مطرحه وكأنني تركت ميامي بالأمس، الشارع والبناية والحديقة التي كنت أقضي عندها كثيراً من الوقت أراقب المارة ليلاً. دخلتُ شقة إلياس ولم أجده يلعب مع ماغي ومايا.

ليلتي الأولى كانت صعبة جداً، وظللت أسترجع ما حدث في هذه المدينة. ثمانية أشهر قضيتها في لبنان لم تغير حالي، وعدتُ لأحصل على الدكتوراه وأشغل نفسي عن الحب الذي مازال يؤرق ليلي ويتعبني، ومراهنة على سخاء الرب معي وأثق به كشعار الأمريكيين في هذه الولاية. اختليتُ بهيام بعد أن نام الجميع. تحدثنا كثيراً برفقة فناجين القهوة. سألتني بحنين عن لبنان، وأخبرتها أن كل شيء على حاله. ما زال اللبنانيون يحبون السهر وشمّ الهوا والضهرات والبحبوحة والمظاهر، ويبحثون عن الترفيه رغم كل شيء. تجمعهم الأرجيلة والتبولة وركوة القهوة وفرحة الأعياد، وتفرقهم السياسة والغربة ودروب السفر.

***

أعرف بأني أواجه تحديات كبيرة، و أنا أبدأ حياتي في ميامي في ظل غيابه.

خرجتُ من الجامعة أقود سيارتي العتيقة التي اشتريتها لتسهل تنقلاتي فهو ليس هنا لأخرج معه أو لأستعير سيارته. رحتُ أبحث في ميامي عن أجوبة لأسئلتي، وبدأتُ بالمطعم الإيطالي القريب من الشاطئ. جلستُ في الطاولة التي كنت أجلس إليها معه دائماً. طلبتُ من النادل عصير الفواكه الذي كان يحبه ويشربه، ودخنتُ سيجارة تلذذت بها مع الذكريات. هنا كنا نتناول البيتزا، وهنا كان يحدثني عن شمس، وهنا

بكيت على كتفه من لوعة الحب والعذاب، وهنا قال لي بلهفة بأنه يود تقبيلي. وعندما بدأت الدموع تندي عينيَّ عدتُ لشقة أخي. تناولتُ الغذاء ورحت أساعد هيام في غسل الصحون ونحن نتحدث عنه. سألتها إذا كان يتلفن لهم، فقالت لي:

- اتصالاته قليلة وآخرها بعد الإعصار .. أمازلت تفكرين به؟

أومأتُ برأسي وأجبتها: لا أصدق بأنه لا يفكر بي ولم يحاول الاتصال بي. ذكرتني برهاني عليه، فتندت عيناي بالدموع وأنا اعترف بخسارتي بشجاعة. كنتُ على وشك البكاء فسكتُ قليلاً ثم غيرتُ مجرى الحديث ورحت أحدثها عن الجامعة، وعن رسالة الدكتوراه التي بدأت بالبحث عن موضوعها. آه، لو يمكنني اختياره لكنت درسته بعمق، وحللت شخصيته وفقاً لنظريات فلسفية وعاطفية خاصة فربما أكتشف فيه شيئاً جديداً وأفهمه.

ضيعان الحب والسهر.

حضرتُ لي فنجان قهوة، وذهبت لغرفتي لأستلذ بها مع سيجارة. أغمضتُ عينيَّ للحظات وأفكاري تذهب إلى ذلك الوقت. أيام الحب والهبل والغيرة. مازالت أتذكر يوم عدت من الجامعة مبكراً وما أن دخلت شقتي حتى أمسكت بسماعة الهاتف لأتصل به في الشركة وأذكره بوعده اصطحابي إلى السينما لمشاهدة أحد الأفلام الجديدة. أحسستُ بقلبي سيتوقف

عندما ردت زميلته على هاتف مكتبه وأخبرتني بأنه مشغول ولا يستطيع الحديث مع أحد. سألتني عن هويتي وإذا ما كنت أريدها أن تبلغه رسالة، فأغلقتُ السماعة بحنق. أحسست بأن النار المشتعلة في قلبي قادرة على إحراق الولاية بأسرها، وظللت انتظر عودته وأعرف قصة انشغاله.

حاولتُ أن أستجمع تركيزي في المذاكرة بدلاً من التفكير وفشلت. تذكرت كلام أخي. قال لي محذراً: لا تستسلمي لطغيان مشاعرك، وليد رجل نبيل لكنه مرتبط ولديه زوجة تنتظره في بلده، وفي إحدى المرات قال لي: أحبي من تشائين إلا صنفين من الرجال، المتزوج ومن يصغرك سناً فأي علاقة معهما ستكون فاشلة. أتعبني التفكير به فهممتُ بالخروج من الشقة للحديث مع هيام لكني رأيته أمامي حالما فتحتُ الباب. عبستُ وجهي والغيرة تحرقني فدوامه لم ينتهِ بعد. سألته:

- شو جابك هلّق؟

أزداد اقترابا مني وقال لي بلطف:

- هيك تستقبليني .. هل كان يومك سيئاً؟

عاهدتُ نفسي ألاّ أسأله عن زميلته، لكني لم أتمالك نفسي فسألته: ولماذا تجيب السّت نيكول على تلفون مكتبك الخاص؟. ضحك مستتشفاً غيرتي عليه، فأمسك بيدي وقال لي بأنه كان في مكتب المدير وعندما عاد أخبرته نيكول

باتصالي فاستأذن مبكراً وأتى لنخرج معاً. ابتسمتُ وغمرته بقوة، واعتذرت على استقباله بجفاء.

ذهبتُ معه إلى المطعم الإيطالي القريب من شاطئ ميامي والمطل على المحيط الأطلسي بمياهه الفيروزية الرائعة، والذي يملك من السحر ما يجعله شاطئ غاية في الروعة والجمال بألوانه الجذابة والحياة المائية النابضة. أبديتُ له بدلال مخاوفي من زيادة الوزن، فابتسم وقال تغزلاً: تملكين جسداً رائعاً. شكرته على إطراءه، فمهما فعل بحقي يعرف كيف يعيدني إليه بنظرة أو غمرة أو كلمة.

جلسنا نأكل باستمتاع. أحدثه عن الجامعة وهو يستمع لي بإنصات، وسكتُ عندما أحسستُ بأن نظراته بدت مختلفة. كان يتفحص وجهي وعينيَّ بكثير من الشوق والخفر. فجأة سألني برقة: هل تغضبين لو قبلتّك؟. ظللتُ ساكتة وشعرت بأنه سيغط على قلبي وعيناه تؤكدان رغبته العارمة في تقبيلي. أحسستُ بالزهو فهاهو يفكر بي كامرأة ويحبني. ابتسمتُ وطمأنته ممازحة بأني لن أستدعي البوليس. أسعدته إجابتي ونهض من كرسيه مقترباً مني. أسكرتني عيناه العاشقتان وأنا أشعر بدفء أنفاسه، ووجهه الجميل يقترب مني أكثر. طبع قبلة على خدي، وأغمضتُ عينيّ وشفتاه تلامس شفتيَّ بنعومة، وفجأة اعتذر مني وعاد لمقعده.

لم يمر على قلبي رجل مثله.

شعرتُ بالإثارة وقتها، وتأكدتُ أن قبلته دليل حب سيصارحني به يوماً ما، فربما لم ينضج بعد، أو لم يحن موعد قطفه. تناولنا البيتزا الشهية وتحدثنا في أمور عدة طغت عليها الأحاديث اليومية. كنت سعيدة جداً لما وصلت إليه علاقتنا حتى وإن كان لم يرح قلبي بعد ويمنحني اعترافاً صريحاً بحبه. رحتُ أشرب عصير الفواكه وأنا أراقبه بزهو وفرح وخوف.

يا لهذه المشاعر المختلطة والغريبة.

كم كنت أنتظر هذه القبّلة منذ زمن والآن خائفة بسببها. كنت جالسة أمامه وحبي وولعي به يظهران في عينيّ ولا يمكن إخفاءه. كل ما فيّ يترجم حبي له وينطق به سراً وعلانية، وأنتظر اعترافه لي بالحب لأخبره بدوري عن كل ما أكنه له من عاطفة. بدا شارداً ويفكر في أمر ما. نبهته بكلامي وأنا أحرك محبسه الفضي بإصبعي:

- أين وصلت .. هل تفكر بزوجتك؟

سكت لثواني بدت طويلة بالنسبة لي، نظر لي بسرعة خاطفة وأبعد عني عينيه وهو يقول:

- أفكر بكما معاً .. بقدر ما أنت قريبة مني هي بعيدة .. تفصلنا بلدان ومشاعر كثيرة تبدأ بالخيبة ولا أعرف بما ستنتهي.

تنهد وهو ينظر إلى البحر من وراء زجاج المطعم، ثم أكمل بنبرة أسى متمنياً أن يمنع قلبه من حبها لأنها لا تستحقه. أحسستُ بأنه صفعني على وجهي، واعتراني ضيق شديد لم تزحه تنهداتي المتواترة. كيف يجرؤ على الحديث عن حبه لشمس بهذه الطريقة، وبدون أن يُقيم اعتباراً لي أو يحترم مشاعري، وأنا التي ظننت بأن قبلته دليل حب سيبوح به قريباً. ظللتُ أستمع له وهو يعترف لي بأنه يفكر بها برغم الجفاء الذي فرضه عليها، وكثيراً ما كتب لها الرسائل ومن ثم تراجع عن إرسالها لإحساسه بأن الأوراق لا تستوعب مشاعره.

ألا يشعر عديم الإحساس هذا، أم أنه يتعمد إغاظتي.

تذكرتُ أحاديثه السابقة عن شمس، لقد أخبرني بقصته معها. بحلقتُ في عينيه الخضراوين واعترفنا أمامي بأنه يحبها. لكني لا أفهم لماذا لا يتصل بها ولا يراسلها. لم أستطع إخفاء الضيق الذي غزاني فأيدتُ كلامه. الأوراق لا تستوعب المشاعر، والمرأة العاشقة تنتظر من حبيبها أن يبوح لها بمشاعره فسكوته يعذبها. بقي صامتاً ولم يقل شيئاً، فهو لا يمكن أن يحس بامرأة تحب رجلاً متجلداً.

أعرف بأني أتسلل إلى منطقة محظورة لكني فعلتها.

اقترحتُ عليه الاتصال بشمس، وأول ردود أفعاله كانت الابتعاد عني بقلبه وأفكاره وبجسمه فلقد تنبهت بأنه أسند ظهره على الكرسي وصار يتعمد النظر إلى البحر متلافيا النظر إلى عينيَّ. خرجنا من المطعم وذهبنا إلى مرفأ اليخوت المحاذي للشاطئ. تمشينا قليلاً واستمتعنا بتناول البوظة، وفي طريق العودة توقف بالقرب من مكتب الاتصالات العمومية متردداً. ربتُ على كتفه وشجعته على الاتصال بها ظناً مني بأنه لن يفعل ففي المطعم أخبرني بأنه يريد أن يلغي حبها من قلبه. أحسستُ بأني سألفظ أنفاسي عندما دخل الكابينة وتحدث معها. بكيتُ والألم يمزق قلبي وأنا أتذكر كلام صديقتيَّ وأخي وملامتهم الدائمة. جلستُ بانتظاره ودموعي تتساقط حزناً على نفسي وأنا أرى الرجل الذي أموت من أجله يتصل بزوجته التي يحبها. بكيتُ بقوة فعرض الرجل الجالس بجانبي مساعدتي وراح يهدئني.

أصعب من الألم تذكره بمزيد من الألم.

عاودني الإحساس بالألم وكأني أعيش اللحظة ذاتها من جديد. تنبهتُ لنفسي وأنا أبكي بمرارة كما بكيت ذلك اليوم، ورغم أنه أخبرني بأنه لم يتمكن من الحديث معها إلا إنني شعرتُ بالانكسار وقتها ولم أجد غيره ليرممني، فرميت بنفسي في أحضانه ودموعي تمنعني من الكلام.

شعرتُ بأني سأختنق إذا بقيت بهذه الحالة، ووليد ليس هنا لأرمي بنفسي بين ذراعيه وأبكي وإن كان هو سبب بكائي. ذهبتُ إلى الحديقة، وجلستُ على أحد المقاعد أدخن سجائري وأتذكر كيف جاء لي معتذراً بعد ذلك بدون تبرير لما بدر منه وبدون أي توضيح لمشاعره.

يا له من رجل غامض لم أفهم مشاعره نحوي حتى اليوم.

***

أخذتُ حماماً دافئاً وخرجتُ ألفّ المنشفة على جسدي وأول ما فعلته هو وضع القلادة حول عنقي. تمنحني القلادة الذهبية التي أهداها إلي وليد وتحمل حروف اسمه بالإنجليزية جرعة حب وولع دائمة. لم أكن أخلعها البتة، ودائماً تتدلى في عنقي متباهية بها أمام صديقتيّ عندما كان معي، والآن تشعرني بقربه. هي أغلى هدية على قلبي والتذكار الوحيد الذي تركه لدي بمحض إرادته.

تواطأت ميامي مع قلبي وذاكرتي.

صليتُ طالبة من الرب الذي أودع حبه في قلبي أن يجد له حلاً، فلن أحمله على عاتقي طوال حياتي كذنب لن يُغفر لي حتى لو دفعت عمري كله نذراً. ها هي الدراسة لم تشغلني عنه، وميامي لم تجدْ عليّ بشيء. بل على العكس

كل شيء يذكرني به، البحر والنوارس والشواطئ البيضاء وأشجار جوز الهند. السماء وأشعة الشمس والشوارع والفنادق واللافتات المكتوبة بالأسبانية والإنجليزية، وصالات السينما التي كنا نرتادها معاً لنشاهد أجدد الأفلام، والاحتفالات الثقافية والفنية والترفيهية التي كنا نحضرها في العطلات، والأسلوب الهندسي الخاص بالمدينة والذي أخبرني بأنه ألهمه كثيراً في أعماله الهندسية، حتى البناية التي أسكنها تذكرني به وببداية حبي له.

أنا وقلبي في مهب الحب والذكريات.

بدأتُ مع صديقتيَّ الدراسة بحماس وجدية للحصول على شهادة الماجستير، هذا الحلم الذي جلبني من بيروت إلى ميامي. كل يوم يمر يزداد فيه حُبي له وتزداد حيرتي أيضاً. حبي له بدأ يعذبني وخصوصاً إنه لم يصارحني بالحب، فقد كنت أفسر أفعاله وأقواله وفق ما أشاء. بدأ حبه يشع من عينيّ كالنور الذي يراه الجميع، وظهرت علاماته واضحة وجلية عليّ، وزادتني جمالاً ورقة وأنوثة وعناية بنفسي. كان وليد بالنسبة لي هو الرجل الموعود، وبرغم ذلك لازمني الخوف. أخشى أن يكون أنانياً يعرف بأني أحبه، ورغم ذلك يريدني أن أكون صديقة يستمتع برفقتي، ومشاعري يجب أن تكون بين جدران قلبي وأتحمل وحدي مسؤوليتها.

هو يسيطر على مشاعره، لكنه ليس وصياً على قلبي.

لم أكن قادرة على الكذب على نفسي، ولم أكتفِ بالصداقة الحميمة التي ربطت بيننا. كنا نخرج معاً، وهو يهتم بي ويستشيرني في أمور كثيرة ابتداء بربطات العنق وصولاً إلى مشاريعه الهندسية. كنت لا أتوانى عن فعل أي شيء علني أرى إشارة مرور لقلبه رغم انتقاد صديقتيَّ لي، ورفض أخي لهذه العلاقة خوفاً من عاقبتها، فقد حذرني مراراً من التمادي في علاقتي به رغم احترامه ومحبته الكبيرة له. لم أهتم بكل هذه الأمور فأنا مؤمنة بأن الحب لا يهاب العوائق.

كدتُ أطير من الفرح عندما أهداني القلادة وطلب مني الاحتفاظ بها تذكاراً لشيء لا أعرف ماهيته. راهنتُ أنها دليل حب لم يفصح عنه بعد، لكني سأدرب قلبه على حبي بالتدريج. لم أكن أنتظر منه شيئاً كما انتظرت اعترافه، أريد أن أكون الحبيبة ولن أكتفي بأن أكون الصديقة فقط. كان قريباً مني دائماً، يساعدني في دروسي وعندما طلبت منه مساعدتي في الحصول على وظيفة مسائية في المكتب الهندسي بجانبه لم يتأخر. أخبرني بأنه لم يشعر بالوحدة منذ قدومي فأنا ملأت حياته وأفكاره وقلبه بمشاعر لا يعرف ماذا تكون، فلم يشاركه أحد وحدته غيري. خلق لنفسه عالماً خاصاً به، ويخاف أن يخسره إذا سمح لأحد بدخوله.

قربنا بيننا العمل المسائي أكثر، وأصبحنا نقضي معاً وقتاً أكثر، نعمل ونتنزه، وكثيراً ما كان يدعوني للعشاء بعد خروجنا من المكتب. كنتُ مسرورة لأني أقرب الناس إليه فلم أرَ عنده صديقاً يوماً، ولا يتحدث عن أحد سوى بعض زملائه والمهندسين الذين يعملون معه، ولا يخرج بصحبة أحد، ومنذ قدومه لم يخرج من فلوريدا ناذراً نفسه للعمل، وخصوصاً بعد حصوله على جائزة هندسية هامة. قال لي مرة بأن العمل والنجاح كالخمر، تجعل الإنسان ينسى الدنيا كلما أدمنها، فيطمع في المزيد ويزهد في كل شيء. أحاديثه عن عائلته قليلة واتصالاته مستمرة مع أمه وعائلتها، أي بفرعه اللبناني فقط. رسائله لأخيه وأصدقائه في السعودية متباعدة جداً ومحدودة، والأهم بأنه لم يسمع صوت شمس منذ سفره، لم يشترِ له هاتفاً خلوياً حتى لا يتجاوز أحد أسواره العالية، وحتى لا يقترب هو من أحد، أو يضعف ليلة ما ويتحدث مع شمس. ربما الدم اللبناني أورثه الجلد ليواجهه الفراق بكل هذه القوة، وبما أني الوحيدة في حياته فسأكون له يوماً ما وهو لي بإذن الحب.

***

جلستُ في إحدى طاولات مقهى الجامعة لأتناول فطوري، كوباً من القهوة الأمريكية السوداء وقطعة كعك شهية. راجعتُ السيمنار الذي أعددته وسأناقشه مع زملائي، ثم ذهبتُ إلى القاعة وحيدة. لم أكون صداقات خلال هذه

المدة، ولم أشعر بأحد مرآة لنفسي ورفيقاً لروحي، ففي حياتي صديقتان فقط برغم معارفي الكثيرة، ولكن لكل واحد منهم وقته وظرفه الخاص. لم أشعر بالغربة من قبل كما شعرت بها الآن. وليد ليس هنا ليملأ قلبي وأوقاتي، أو ليصطحبني في نزهة نهاية الأسبوع إلى بحيرة إيميليا، أو الحي الأسباني بأبنيته الملونة، ومقاهيه ومطاعمه المميزة، والحفلات الراقصة في الشارع على موسيقى حية تعزفها فرق المارياتشي ويتجمهر الناس حولها.

أنا وحيدة بدونه وبدون صديقتيّ.

تعرفتُ على لينا خلال دراستي الثانوية، أما فدوى فأعرفها منذ طفولتي. كنا نسكن الحي نفسه وندرس في المدرسة ذاتها، واشتركنا في كل شيء لاحقاً. هما الوحيدتان اللتان أشكو لهما كل شيء، ومعهما أفكر بصوت مرتفع وأخبرهما بما في قلبي، ومعهما عشت قصتي مع وليد وبكيت مما فعله بي.

أيقظتني زميلتي الأمريكية من أصول مصرية، ناريمان، من أفكاري عندما طلبت مني توضيحاً لبعض ما استعصى عليها فرحتُ أشرح لها حتى جاء البروفسور الألماني الذي يطرح أسئلة عميقة وصعبة بداية كل محاضرة، فالكل يستعد لأسئلته المعقدة ورغم استعدادنا له إلا أن من يجيب على أحد أسئلته يتورط. كانت ناريمان الأقرب لي في دفعتنا البالغ

عددها ثلاثين طالباً وطالبة من مختلف الجنسيات. كنا نترافق داخل حرم الجامعة وزمالتنا لم تتعدَّ أسوارها، فكل واحدة منا لا تعرف إلا القليل عن حياة الأخرى الخاصة، وقد حاولتُ جاهدة أن أبقي العلاقة هكذا ولا أسمح لها بالتطور أبداً. انتهيتُ من يوم دراسي طويل ثم توجهت لمكتبة الجامعة مع ناريمان حيث نقوم بالإعداد للسيمنارات المقررة علينا، ولاحقاً نشرحها ونناقشها مع الزملاء تحت إشراف أستاذ المادة.

***

استلقيتُ على سريري وبين يديّ سيجارة أخذت منها أنفاساً ببطء بعد أن استعصى النوم عليّ. ظننتُ بأن سفري ودراستي ستشغلاني عن التفكير فيه لكن العكس هو ما حصل فلا الوقت قتل الحب، ولا الحب قتل الوقت كما تقول فيروز، ولم تأتِ تدريبات النسيان مع قلبي بنتيجة. دخلت هيام عليّ بعد أن طرقت الباب عدة مرات و لم أجبها. جلست على حافة السرير وقالت لي: كفى يا ميراي .. أنت تدخنين كالمحرقة. هززتُ رأسي وقلتُ لها:

- وبرغم ذلك مازلت أفكر فيه وبهزائمي وانكساراتي.

تنهدتُ وأردفتُ أذكرها بعملي معه في المكتب الهندسي، فقاطعتني: أعرف هالقصّة. سارعت بتغيير مجرى الحديث وسألتني الذهاب معها لحفلة موسيقية لعازفة بيانو روسية.

أومأتُ برأسي موافقة، فراحت تتحدث عن حبها لحنان البيانو ورقته، فهو أعظم آلة موسيقية أخترعها الإنسان، لكني عُدت وسألتها:

- وبماذا تفسرين اهتمامه بي؟ .. لماذا لم يحبني؟

تأففت وانفعلت، اتهمتني بالجنون وبالهوس، فمشاعر وليد الحقيقية برأيها كانت صداقة بحتة بين رجل وحيد وامرأة جميلة ومجنونة، فيها الرفقة والرغبة. التزمتُ الصمت، فهاهي هيام تواجهني بما أخشاه. الجميع يرى علاقتنا صداقة، وأنا الوحيدة التي كنت أراها نوعاً أخر. دعتني لزيارة مُعالجة نفسية لتساعدني في التخلص من هواجسي وخرجت. تركتني وحدي مع سجائري وأفكاري. أفعلاً كانت الرغبة ما تقربه مني؟ ألهذا الحد أنا لا أُحب. حاول الكثيرون التودد لي ولكني أضع لهم حدوداً لم تتجاوز الزمالة الدراسية، فهناك رجل يملؤني بإحساس الحب برغم بعده عني، وبرغم علاقتنا الغريبة.

قلبي تحت الحصار.

ما الذي يجعله يرسم شموخه عليّ؟ ألا يعرف بأن في الحب تسقط كل القناعات والشعارات والأخلاق؟ لم يتصرف معي وفق رغباته فلقد كنت أمامه ولم يهتم بي؟ ألهذه الدرجة يحب زوجته ويخلص لها ككاهن نذر حياته لربه؟ كم أتمنى لو أراها وجهاً لوجه، وأعرف لماذا يحبها كل هذا الحب.

أريد أن أعرف كيف تتحدث وكيف تمشي وكيف تأكل. أريد أن أشم رائحتها وأحدق بعينيها، علني أعرف لماذا وقفت عائقاً بيني وبينه وهي في النصف الآخر من الأرض.

***

يبدو أن ما حاولت ربطه على الأرض كان محلولاً في السماء.

خرجتُ من المكتب الهندسي بصحبته بعد يوم طويل وشاق. ذهبنا إلى المطعم الإيطالي الذي شهد على الكثير من لقاءاتنا. كان سهلاً على أي أحد يراني ويتأمل عينيّ أن يعرف بأني أعيش حالة حب صعبة، ووحده وليد لا يقرأ عينيّ. أتعذب وأين هو من عذاباتي، نذرتُ قلبي له، يجرحه وعندما يعود لي مرة أخرى يجدني فاتحة ذراعيّ له. يتظاهر بأنه غير معني بمشاعري وكل ما يبدي في عينيّ، لكنه تلك الليلة بدا مختلفاً.

جلس أمامي وجسمه قريب مني، عيناه تتأملاني بطريقة مختلفة وتنطق بكلمات جميلة، فيها دهشة وفتنة ومغايرة. أمسك بيدي واستأذنني البوح بما يشعر به. ابتسمتُ وأخبرته بأني مصغية إليه. كنت واثقة بأنه سيعترف بحبه ففي عينيه ذلك البريق المفضوح الذي لا يستطيع إخفاءه أكثر. سيركع أمامي برومانسية معلناً حبه فالظروف مواتية، وكروم العنب

نضجت وحان أوان قطافها وعصرها لتصبح نبيذاً لذيذاً نشربه نخب الحب والسعادة والنجاح. بلع ريقه وقال وعيناه تتأملان عينيَّ بشفافية: لم أعد أصمد أمام أنوثتك الطاغية .. عيناك ونظراتك تقتلع قلبي من مكانه.

قال جملته بارتباك وسكت، فابتسمتُ أنا بأسى. شعرتُ بالخيبة فبعد كل الوقت الذي انتظرته جاء يخبرني بأنه لم يعد يصمد أمام أنوثتي. هو لا يحبني، ولا أدري ما الذي يريده مني. أطلقتُ تنهيدة عميقة وقلت له:

- أنت لا تشعر بي .. أنا مجرد رفيقة تتسلى معها في غربتك.

بدا محرجاً فراح يبرر:

- أنت تحتلين مكانة مميزة في قلبي .. نحن متفاهمان كثيراً .. وأشعر بالراحة معك .. لم أفتح قلبي لأحد منذ سفري سواك فلطالما كنت كتوماً ومتحفظاً في علاقاتي حتى مع العرب هنا .. لا أزور أحداً وعلاقاتي مع زملائي لا تتعدى العمل .. حتى السعوديين أتلاشى لقاءهم والاختلاط بهم .. أنت الوحيدة التي استطاعت اقتحام حياتي.

شعرتُ بأن قلبي بدأ يختنق من البكاء فها هو يصفني بالمقتحمة لحياته، ألم يجد أرق من هذه الكلمة البشعة؟ ألم يجد تعبيراً أخر؟ شربتُ رشفة من الماء ورحت أقروش مع حالي بغصة متلافية النظر لعينيه، لقد أحرزتُ تقدما لا بأس

به بعد سنة ونصف من الانتظار والسهر والعذاب. أردفتُ بسخرية مريرة:

- نحن متفاهمان وأنت مرتاح .. كتر خير الله.

أدهشته ردة فعلي فسألني: ولماذا تكلمينني بهذه الطريقة؟ .. ما بكِ؟

لم أجد ما أقوله له، فأنا في واد وهو في واد أخر. هو يسألني ما بي بعد ما قاله لي عديم الإحساس؟ يحملني جميل اقتحامي لحياته، حتى المفردة التي استخدمها قصد بها مقاومتي. يريدني أكون سعيدة كونه متحفظاً وانطوائياً لا علاقة له به أحد، وأنا نلت شرف صداقته. تمنيتُ أن أقول له ذلك لكني لا أقدر، كما لم أقدر على منع عينيّ من التعبير عن خيبتهما فسقطت دموعي غزيرة. مد يده ليمسحها وبرغم استيائي مما قاله لي إلا إني اقتربت منه وأسندت رأسي إلى كتفه. استشعرت دفئه وحنانه المخفي تحت قالب من الجليد وطلبت منه أن يعيدني إلى الشقة.

تكورتُ على وسادتي وصديقتاي تسألانني بخوف عما حدث بيننا. أخبرتهما بهذا الوسام الرفيع الذي نلته بعد طول انتظار. أخيراً أعترف لي وليد بأنه يُحب صحبتي، لم يعد يصمد أمام أنوثتي ولي مكانة مميزة في قلبه. صرختُ بحرقة: لا يحبني .. يجدني رفيقة جميلة فقط .. منيح ما قال مثل أخته.

ما فعله في قلبي، كان جريمة حرب.

خرجت فدوى من الغرفة منفعلة بينما ظلت لينا تهدئني وتحاول امتصاص غضبي وانفعالاتي، لكني ظللت أبكي واستنكر واشجب ما حدث حتى عادت فدوى بصحبته بعد قليل. بقينا وحدنا، وجلس على حافة السرير يتفحص عينيّ المغلفتين بالدموع وآثار البكاء بادية على وجهي. سألته عمَّ يريده مني وأنا أتفادى النظر لعينيه، فأجابني برقة: جئت لنتحدث.

ألقيتُ بنفسي في حضنه بدون أن أتكلم ما أن أنهى جملته. غمرني وأحسستُ بأني طفلة صغيرة وضعيفة، وبرغم كل ذلك أملك الدنيا كلها وأنا بين يديه، وتحيطني ذراعاه ورائحته تغلغل في روحي. نشجتُ بالبكاء فرفع رأسي طالباً مني بتأثر ألاّ أبكي. تمنيت أن أقول له ما في قلبي لكني لم أقدر. مسح دموعي السخية بأطراف أصابعه وقال متأثراً:

- لا أريد أن أسبب لك الأذى يوماً ما.
- ...

غمرته وأسندتُ رأسي إلى كتفه، ويده تبعثر شعري برقة وكأنني طفلة يريدها أن تتوقف عن البكاء. تنهدتُ وقررت مصارحته ما أن سألني عن سبب انزعاجي. نظرت إلى عينيه وسألته:

- ألا يصلك شوقي أم أنك لا تشعر بي؟ .. الكل يعرف ما يحدث لي إلا أنت .. كلهم يلومونني على حبي لك فبرأيهم أخوض حرباً خاسرة.

زم شفتيه، وبدا مرتبكاً عندما قال: أنا حائر. بلعتُ ريقي وسألته عن السبب فأنا قريبة منه. أغمض عينيه للحظة ثم قال لي اعترافه الخطير مجتاحاً وقاصفاً قلبي بعنف. هو يُحس بشيء ما يشده نحوي ولا يعرف ما هو، إعجاب أم انبهار. قاطعته بانفعال واعترفتُ له بكل شجاعة وجرأة، بأني أحبه وربما أكثر من نفسي، فهل يفهم؟ سكت فليس لديه ما يقوله أمام صراحتي. ضمني إليه مجدداً، وأكد احترامه لمشاعري فهو يعيش حالة عاطفية غريبة. سكت لثوانٍ ثم أردف:

- لا أعرف متى أطيع قلبي ومتى أعصيه .. عديدة هي المرات التي قصدتك فيها لأتحدث معك بهذا الشأن ثم أتراجع .. الأفضل أن تظني بأني وضعت مكان قلبي قطعة ثلج باردة لا تشعر بشيء.

صدمني حينما قال إنه لا يملك الحق ليحبني. أخرجتُ نفسي من بين ذراعيه غاضبة، فهو يلغيني ويتخذ قراراته بدون أن يسألني، وحقاً لا أدري إذا ما كان يُعز نفسه ويذلني. أدركتُ حينها الفوارق الثقافية بيننا، سيظل سجيناً في نفسه وأفكاره للعادات والتقاليد التي صنعوها في بلادهم حتى وإن كان يحمل دماً مختلفاً. برغم تعليمه وعمله وسفره وانفتاحه بقي عقله مقفلاً وقلبه ومشاعره ليست أولوية. يحاول أن

يتصرف بمثالية مستحيلة كأبناء جلدته، ويفرض الوصاية على أفكاره ومشاعره. مازال مرتهنا للعادات والأخلاق والدين والقبيلة. مازلت أتذكر عندما كنت أزوره ويبقي باب شقته مفتوحاً في بداية علاقتنا. تمنيتُ لو يقول لي بأنه يحب زوجته مثلاً ولا يستطيع أن نسيانها أو خيانتها، لكنه ظل يحدثني عن الحق الذي لا يملكه ليحبني. من انتزع منه هذا الحق وصادره، ألهذه الدرجة يتحكم بقلبه الحديدي؟

هو يعاملني كطفلة يجب أن لا تبكي وتشتكي وتزعجه. يريدني طفلة مطيعة وصامتة، لا تتدخل في شؤون الكبار ومشكلاتهم العاطفية. برغم صدمتي من كلامه إلا إني قلت له بأن زوجته لا تعنيني فأنا عرفته وأحببته وهو بعيد عنها. أدهشته جرأتي فبلع ريقه وراح ينظر لي بعينيه اللتين تجعلاني أنسى نفسي وأتكلم. قلت له: لست طفلة تبكي من أجل الحصول على لعبة .. أنا راشدة.

طلب مني كفكفة دموعي، ففهمت بأنني مازلت أراوح مكاني.

تمنيتُ لو أرجع طفلة ليوم واحد، أحب اللعب وأكل الفشار والمثلجات ولا يهمني شيء آخر. طلبتُ منه أن يأخذني إلى مدينة ديزني فوعدني بذلك في أقرب فرصة، وعرض عليّ الخروج إلى المشي حول البناية قبل أن نخلد إلى النوم، فوافقت رغم تأخر الوقت. خرجنا نتمشى

متشابكي اليدين بصمت، لا أجد ما أقوله له ولا يعرف ما يقوله لي. ابتعدنا كثيراً عن البناية وأصبحنا خلف الحديقة العامة، وعندما أحسست بالتعب جلستُ على كرسي خشبي في موقف الحافلات مبدية تعبي. وقف أمامي بطوله الفارع وأضواء ميامي تلقي عليه سحراً خاصاً. قال لي مبتسماً:

- سنقطع هذه المسافة مرة أخرى في طريق العودة.

ابتسمتُ وقلت له بأني لن أعود مشياً مهما حدث، فإما أن يجد سيارة أجرة أو يحملني. ضحك من قلبه وأمسك بيدي ودعاني إلى النهوض لنبحث عن سيارة أجرة. ابتعدنا عن موقف الحافلات وبدأ يشير لسيارة أجرة للتوقف، وأثناء وقوفنا أقترب منا أحد زملائه القدامى بصحبة زوجته. تبادلا التحية والأحاديث السطحية. قدمني كزوجته عندما سأله الرجل عني بفضول وخبث. أسعدتني كذبته، فأحياناً يكون للكذب مفعول عجيب علينا، يسعدنا ويريحنا ويخلصنا من ضغوطاتنا، ويفتح لنا نافذة على السعادة.

***

لماذا قلبي يسايرني؟

استيقظتُ في أحد صباحات السبت وفكرة الذهاب إلى مدينة الملاهي في أورلاندو تشغلني، وكأنني أريد أن أعذب نفسي وأتذكر عندما ذهبت مع وليد بعد تلك الليلة الصعبة.

تمنيتُ أن أرجع طفلة وقتها وهو لم يتوانَ في ذلك، واصطحبني إلى مدينة ديزني العملاقة. هو يريدني طفلة يُملي عليها رغباته، ويتحكم بعاطفتها وأحلامها. تذكرتُ كلام لينا فهي كثيراً ما كانت تقول لي: شو بدّك بها الشاب المعقد!

كنت أريد منه ما يجعلني أكذب كلامهم.

ذهبتُ إلى هيام في المطبخ ووجدتها تعد الترويقة. زممتُ شفتي وعرضتُ عليها فكرة الذهاب مع ابنتيها إلى مدينة الملاهي، فلوت فمها وطلبت مني مرافقتها لشراء تذاكر الحفل الموسيقي لعازفة البيانو بدلاً من ذلك. تنهدتُ وذكريات حفلة فيروز التي حضرناها معاً قبل سفره تطوف ببالي، فبقدر ما كنت سعيدة لحضوري الحفلة بقدر ما بكيت يومها. لاذت هيام بالصمت عندما ذكرتها بها، وذهبت لتوقظ أخي وابنتيه.

وضعتُ الركوة على النار وأنا أتذكر كيف ذهبتُ لوليد في شقته لأخبره بشأن الحفلة. وجدته يستعد للاستحمام، فطلبت منه أن يستحم بينما أقوم بترتيب شقته. وضبتُ أوراقه على الطاولة، ووضعت ملابسه النظيفة في الدولاب فألتفتُ إلى صورة شمس. أمسكتُ بها أتأملها باستخفاف، وأريد أن أعرف سر حبه لها. أمره غريب ومُحير، يضع صورتها بجانبه، وفي الوقت ذاته يرفض الاتصال بها. وإذا

اتصل بأخيه يتجنب الحديث عنها وهو يعلم بأنها تعيش في بيته فهو متزوج من أختها. لا يبدي أي اهتمام بها حتى وإن كان حجم الخلاف كبيراً بينهما، وإن آذاه والدها وشقيقها وهي لم تدافع عن زواجهما كما يقول. فكرتُ أن أكسرها وأخبره بأنها سقطت من يدي سهواً لكني تراجعت وشعرت بأن لعبتي مكشوفة، ووضعتها مكانها عندما سمعت صوته يستأذنني الدخول لغرفته ليرتدي ملابسه. ذهبت إلى الصالة أنتظره وأنا أعبث عمداً بأوراقه. وجدتُ ورقة كتب فيها رسالة إلى شمس يعاتبها على خوفها وضعفها وسلبيتها في أصعب مواطن علاقتهما عندما تمسكت بعنادها ورفضت السفر معه في ظل مشكلاته مع عائلتها.

إذن هي تشغله لحد الآن، ولم أستطع بعد مرور أكثر من سنتين على لقائي به محوها من قلبه. تباً لشمس التي تقف حائلاً بينه وبيني، وتجعله يتصدى لعواطفي.

بدا سعيداً عندما أخبرته بأن هيام حصلت على بطاقات من الدرجة الأولى لحفلة السيدة فيروز وخرجنا معاً إلى المكتب الهندسي. عملنا سويا حتى العاشرة مساءً ومن ثم ذهبنا إلى أحد المقاهي القريبة. تناولنا وجبة خفيفة، وأخبرته بأني انتهيت من كتابة الرسالة ولم يبقَ غير مراجعتها قبل طباعتها وتجهيزها. قلتُ له بدلال: رسالتي مهداة إليك وعليك أن تحضر المناقشة. ابتسم وأكد لي بأنه سيكون بجاني ووعدني بالحضور وبالاحتفال بعد ذلك.

عدنا إلى البناية، ودعوته لقضاء بعض الوقت معي. جلس يطالع مسودة الرسالة وهو يتثاءب، وعندما غلبه النعاس تمنى لي ليلة سعيدة وهمّ بالخروج. أمسكتُ بيده عند الباب وقالت له يدي بلغتها الخاصة بأني أحبه، فابتسم وقبّل جبيني وأصابعه تتخلل شعري. قرب رأسه من أذني مستنشقاً عطري ومبدياً إعجابه. همس لي بأنه يريد العودة لشقته قبل أن يفقد السيطرة على نفسه من تأثيره. ضحكتُ وطلبت منه أن يرحل برغم أمنيتي أن يفقد السيطرة على نفسه لأرى ماذا سيفعل.

تنبهتُ من أفكاري وهيام تسألني: شو ميراي .. ألم تجهز القهوة بعد؟. نظرتُ للركوة التي لم تتغير فأنا لم أفتح النار. أعددتها بسرعة وأخذتها لهم. رحتُ أشرب فنجاني وأخي وزوجته وابنتاه يتحدثون بمواضيع لا تهمني. نهضتُ وجلبت لي سيجارة ورحت آخذ منها أنفاساً عميقة فنبهني إلياس: روّقي شويّ على صحتك. ضايقتني لهجته فدلفتُ إلى غرفتي ولحقت بي هيام بسرعة. أمسكت بيدي وقالت بهدوء:
- أصبحتِ شديدة الحساسية .. ما رأيك بزيارة مستشارة نفسية لتساعدك.
فضلتُ السكوت فزمت شفتيها وقالت: أنتِ تعاقبين نفسك.

***

لا يفارقني، وأفكر به على الدوام.

أخبرتها بمشكلتي، فطلبت مني وهي تنظر لي بعينيها الكبيرتين أن أتحدث عن حبيبي السابق. حثتني على البوح بحركة من رأسها فبلعتُ ريقي ورحتُ أحدثها عنه. هو سعودي مسلم من أم لبنانية مسيحية مثلي. عاش مع أمه في لبنان لسبع سنوات ثم اختطفه أبوه ليعيش مع زوجته الأولى وأولاده بعد أن طلق أمه. وجد نفسه بين عائلة اعتبرته فرداً غير مرحب به وتفننت في إيذائه. فجأة وجد نفسه طفلاً مهملاً، لا يهتم أحد بمذاكرته وكوابيس منامه، بعد أن كان مدللاً، تحممه أمه وتبقى على سريره تحكي له حكاية حتى يغفو. قال لي بأن سنواته الأولى في السعودية تركت في حياته خدوشاً لا يمكن أن تزول. عادت أمه بعد مدة لتأخذ حقها برؤيته ومنحه كل ما يحتاج من عاطفة ودعم مادي ومعنوي مما خلق له مزيداً من المشاكل مع والده. اهتمام أمه به لم يتأثر بزواجها وإنجابها، وظلت علاقتهما خاصة فكلاهما تعذب كثيراً. تلك المرحلة مازالت عالقة بذاكرته ونفسيته وشخصيته، ولها دور مهما في سلبية علاقته مع عائلته. عاش حروباً عائلية، وبلده يواجهه حرب الخليج الثانية، ولبنان ينهي حربه الأهلية.

درس في السعودية، وتزوج مبكرا من إحدى قريباته. يقول بأنه يحبها منذ طفولته، وأنا متأكدة بأنه حب طفولة ساذج فلقد كان طالباً في الجامعة عندما تزوجا. جاء للعمل

هنا بعد تخرجه، ورفضت زوجته المجيء معه لأسباب عدة لم يقتنع بها. التقيتُ به عندما جئت أستكمل دراستي. أحببته منذ النظرة الأولى، وأصبحتُ متيمة به في غضون أيام. أعجبتني شخصيته الجذابة ورصانته. مظهره يوحي بالغرور، لكنه ليس كذلك. هو ذكي ومتحفظ في علاقاته مع الجميع، وتحيط به هالة من الكبرياء، وأسوار عالية ليس بالسهولة تجاوزها.

أصبحنا صديقين ووقفنا عند هذه النقطة. مشيتُ بسرعة في علاقتي معه، وهو متردد في مشاعره ويحيرني لحد الآن. صارحته بحبي متناسية عاداتنا الشرقية التي تعيب على المرأة اعترافها ومبادرتها بالحُب إلى الرجل. ظننتُ وقتها أن تربيته في بيئة مغلقة هي السبب، فأنا أنتمي إلى أكثر بلد عربي حُر ومنفتح وهو ينتمي إلى أكثرها انغلاقاً وتحفظاً. ظللتُ لأكثر من سنتين أنتظر مبادرة، لكنه كافأني بعودته إلى بلده ولزوجته. مازلتُ أحمل حبه في قلبي وعيناي لا تقشعان غيره، وكنت مستعدة لفعل أي شيء في سبيل الحصول عليه لكنه لم يأبه لي وعاد لزوجته بشكل مفاجئ. علاقته بها غريبة، لم يحادثها طوال مدة بقائه هنا وفي الوقت ذاته يحتفظ بصورها ويحدثني عنها.

نار ودخان ودمار، هذا ما تركه في قلبي.

مسحتُ دموعي وأنا مستلقية على الكرسي في عيادة المُعالجة النفسية التي ذهبت لاستشارتها. ظلت لحظات تتأملني بصمت ثم سألتني:

- هل التقيت به مرة أخرى؟
- كلا .. انقطع كل شيء بيننا وكأنه لم يكن .. فليس بيننا اتصال أو رسائل.

ساد صمت طويل، ودموعي الغزيرة تعبر عن حالة الفوران التي يعيشها قلبي. أصبح في حياتي قضية، وفي قلبي آثار مأساة ونكبة وكارثة وهزيمة. طلبتُ منها المساعدة فحبي له أصبح مرضياً. طرحت عليّ سؤالها الشرك: هل أنت متأكدة بأنه كان يحبك؟. زممتُ شفتي وقلتُ لها بجرأة: لا. لستُ متأكدة بأنه يحبني فهو نفسه لا يعرف ماهية مشاعره نحوي، حتى أنا أصبحت أشك بأني أحبه. أشك بكل شيء، حتى في قلبي ومشاعره، أكانت جنوناً أم هوساً أم حباً غير حقيقي.

قاطعتني موضحة مفهوم الحب بأنه حقيقي دائماً، فلا وجود لحب غير حقيقي، أو حب كاذب أو مخادع، فعندها يتخذ معنى وصفة مغايرة. أدرتُ وجهي عنها فنادتني باسمي وسألتني بابتسامة:

- أكان الحب الأول؟

هززتُ رأسي وقلت: نعم، فأنا لم أحب قبله غير أستاذ المدرسة عندما كنت مُراهقة. أنا لم أعد تلك الطفلة أو

المراهقة، لكنه أصر على معاملتي هكذا، ولا أعرف لماذا؟ لماذا لم يقدر مشاعري؟
ابتسمت وقالت:

- لا تفكري كثيراً بالأسئلة التي لا جواب لها.
- ...
- هل ستدمرين نفسك من أجله .. بهذا تكونين مشتركة معه.

قلتُ لنفسي آه، أهذا ما تستطيع قوله المستشارة النفسية، هي لم تقل كلاماً جديداً. كل كلامها اختصرته ساندرا عندما قالت بلا حب بلا بلوط. عليَّ أن أنساه أو أتناساه ولا أدعه يدمرني، علي أن أرمم قلبي. قضيتُ وقتاً أفكر بالحب والبلوط والعلاقة بينهما ثم ذهبت لهيام وقلت لها بأني لن أذهب لتلك الطبيبة مرة أخرى.

***

أغلقتُ جهاز الكمبيوتر بعد أن انتهيت من تنقيح السمينار الذي أعددته وسأناقشه مع زملائي في الكلية بعدة عدة أيام، وضغطتُ على زر الطباعة فأتتني الأوراق من فم الطابعة بسرعة. وما أن انتهيت حتى بدلتُ ملابسي لأخرج مع ابنتي أخي فلقد وعدتهما بنزهة. دعوتُ هيام للخروج معنا لكنها فضلت البقاء في البيت، فهي تحب أن تستقبل أخي مساءً عندما يعود مرهقاً بعد يوم عمل طويل بين جامعة ميامي

والمستشفى، ودائماً تستقبله بطبق لبناني على العشاء. أخي الهادئ قليل الكلام، لم يتغير ومازال يحتفظ بعاداته منذ سنوات، مستمر في القراءة في تخصصه وسماع الموسيقى الكلاسيكية. يحب حضور الحفلات الموسيقية والأوبرا، وربما تخصصه الطبي في جراحة المخ والأعصاب يتطلب منه هدوءاً فائقاً. لم يحدثني إلياس عن وليد ولم يسألني عما فعلته بعده. طبيعته الهادئة مريحة له ومتعبة للمقربين منه، فهو من النوع الذي يعرف كل شيء ويتظاهر بأنه لا يلاحظ شيئاً. أصبحت هيام بطيبتها ومحبتها نافذتي الوحيدة عليه وأعلم بأنها تخبره بما يجول في عقلي وقلبي.

اصطحبتُ ابنتي أخي إلى صالة الألعاب المغلقة في أحد المجمعات التجارية القريبة. لعبتا كثيراً ثم أخذتهما لمحل الفيديو واشتريت لهما فيلماً كرتونياً، وعدنا بعد أن تناولنا عشاءنا في أحد مطاعم الوجبات السريعة. نامت الصغيرتان وبقيت وحدي أفكر به، وبالغياب الذي فرضه عليّ. هو دائماً الآمر والحاكم، ويملك قرار السلم والحرب. أشعلتُ شمعة واعترفتُ إلى لله أمامها بأن علاقتي بوليد لم تكن سوية البتة، فيها خطأ ما لا أعرف نسبته، لكن آثاره عليَّ كانت مدمرة، فلقد أتبّع مع قلبي سياسة الأرض المحروقة.

***

كنت فراشة تعشق الضوء الذي يحرقها.

خرجتُ من الجامعة بعد نهار دراسي طويل. لم أكن أريد العودة إلى الشقة مباشرة، فمررتُ بالمكتب الهندسي الذي جمعني مع وليد عندما كنا نعمل معاً في وسط المدينة. كان حبه ملهماً ودافعاً لي إلى لاجتهاد لأكون بمستوى تفوقه. كان يعاملني كحبيب حيناً وكصديق حيناً آخر، يساعدني وأجده سنداً وقت الحاجة. يفهم ما أريد وما يعتريني ما عدا غرامي نحوه، وفي الوقت ذاته يغضب عندما يتغزل بي أحدهم علناً. لم أكن أريد من حياتي غير لمسة حنان منه، وليلتفت قليلاً إلى قلبي، لكن بلا فائدة.

ذهبتُ إلى الشاطئ والشمس توشك على الغروب، فأحببتُ قضاء بعض الوقت أراقب البحر وأفكر بلا شيء وبكل شيء. أغمضت عينيّ وتطايرت أفكاري بسرعة نحو الروشة وفكرة الانتحار التي راودتني عندما عاد وليد إلى بلده. ألغيتُ تلك الفكرة من أجل أمي، وكم اشتقت إليها. اتصلت بها، وتحدثنا لبعض الوقت وطمأنتني إلى صحة والدي وأختيّ وأولادهما، وإلى بيروت أيضاً، وأنهيت المكالمة بصلواتها لي. أرسلتُ رسائل نصية إلى شقيقتي فهما دائمتا العتب على قلة اتصالي بهما. شعرتُ بالبرد عندما حل الظلام فعدت إلى الشقة. استلقيتُ على سريري وخطفتني الذكرى بعيداً، عندما كنت أنتظر عودته من الشركة ذلك اليوم الذي ستقام فيه حفلة السيدة فيروز.

يومها ظللتُ أنتظره ولم يأتِ فذهبت إلى شقته. فتح لي الباب وبسرعة راح يبرر عدم قدومه إلى شقتي - كعادته - بانشغاله بوضع اللمسات الأخيرة على تصميم هندسي لمصلحة المكتب الذي يعمل به. جلستُ على الطاولة أمامه متعمدة شغله عن العمل، لكنه لملم أوراقه. بدا مرتبكاً ويخفي عني شيئاً ما فسألته: شوّ بك ملبّك ؟ .. هل تمر بمشكلة؟. ربتُ على كتفه، وتظاهرتُ بالقوة عندما قال بأن ما سيخبرني إياه سيزعجني. ماذا سيقول بحق الله لقد تعودت على صدماته. تجنب النظر إلى عينيّ وهو يخبرني بالعرض المغري الذي تلقاه للعمل في السعودية. صمته الطويل أرعبني، ثم قال مدارياً عينيه عني: أنا لا أعرف ماذا أفعل .. لكن فكرة العودة تختمر في رأسي .. لن أبقى هنا للأبد.

تسمرتُ مكاني فهذا ما كنت أخشاه، أن ينتهي كل شيء بيننا بسهولة. لم أشأ أن أناقشه رغبة بعدم التأثير عليه، وابتسمتُ على مضض طالبة منه أخذ قسط من الراحة فمساء سنذهب لحضور الحفلة. عُدت إلى شقتي مصدومة وأريد إخفاء ذلك عن صديقتيَّ. تكومتُ على سريري بيأس امرأة لا تستطيع أن تفعل شيئاً. لم أخبر أحداً بما قاله لي، وحاولتُ أن أكون طبيعية أمام الجميع رغم الدموع التي وقفت على عتبة جفوني تنتظر الإذن بالخروج.

ارتديتُ فستانا أسوداً قصيراً، ووضعت لمسات خفيفة من الماكياج والرغبة بالبكاء تلازمني وأنا أستعرض احتمالات

نهاية علاقتنا، فربما يغير بكائي مسير قدري معه. ذهبتُ إلى شقته في الثامنة، وتمنيت لو أنني أصارحه وأطلب منه أن يضع خاتمة لحكايتنا. تمنيتُ لو أسأله عن قراره ولكني تمالكتُ نفسي فيكفيني ذلاً من هذا الحب. وجدته مستعداً للخروج ببذلته السوداء وربطة عنقه المميزة. عرفتُ من قبل أن انظر لعينيه أن المسألة منتهية، فلقد كان يتجنب النظر لعينيّ اللتين اقتلعتا قلبه من مكانه كما قال لي يوماً ما. كانتا بارودتين تطلقان عليه رصاصات الحب والوله والعتاب المُسبق. اقتربتُ منه وشددّتُ على ربطة عنقه وعيناي تبحث في عينيه عن أمل.

جلسنا في مقاعد الدرجة الأولى والقريبة من خشبة المسرح المكتظ بالناس والجاليات اللبنانية والعربية المتشوقة لسماع سفيرتنا إلى الله والسماء. توسطتُ صديقتيَّ، وجلس هو بقرب أخي وزوجته. كنتُ مشوشة ومصدومة وخائفة، وأتظاهر بأن الخبر لم يؤثر فيَّ. صدمتني تصرفاته معي فهو لم يكن كعادته. لم يبدِ إعجابه بملابسي أو بماكياجي، ولم يمسك بيدي في السيارة ولم يحدثني أو يمازحني. كان صامتاً وشارداً طوال الطريق ولا بد بأنه يفكر فها.

أطلت جارة القمر محدثة حالة من النشوة بين الجمهور الذي وقف يصفق لها طويلاً. ترقرقت عيناي بالدموع حالما رأيتها، ولمحت الدموع في عيون الجميع. كنتُ في عالم

آخر، فيروز ترتل أغنياتها وتبعث الأمل بصوتها، وأنا ساهمة أفكر به وبعلاقتي الغريبة معه.

كيف ستكون حياتي بعده؟

أحبه ولا أستطيع أن أقول بأنه يحبني أيضاً، فعلاقته غريبة معي ومع زوجته التي هجرها رافضاً الحديث معها، حتى عندما زارته أمه بعد سنتين من سفره ونقلت له توسلات شمس الراغبة في الحديث معه عادت بدون جدوى. سبحانك يا رب أبهذه السرعة يقرر العودة لها ناسياً أو متناسياً جفاءه لها، وجاحداً عاطفتي وحبي له. من هي هذه المرأة التي تبقيه متعلقا بها برغم الجفاء والبعد والسنوات.

غنت فيروز رائعتها أهواك بل أمل، فلم أتمالك نفسي ونزلت دموعي غزيرة وملتهبة. نذرتُ قلبي من أجل إرضاءه لأكثر من عامين ولم يقدّر ذلك، وجاء يخبرني بكل بساطة بأنه يفكر في العودة إلى وطنه. قطعت فدوى أفكاري هامسة بأن هذا الصوت الملائكي سيكون دفعاً قوياً لنا لنقدم أفضل ما لدينا. أومأتُ برأسي وأنا لا أفكر بأحد غيره، لا الرسالة ولا الماجستير ولا أي شيء أخر. أحسستُ بأن أحداً يعصر قلبي بقوة وفيروز تناجي الحضور.

أنا صار لازم ودعكن و خبركن عني
أنا كل القصة لو منكن ما كنت بغني
غنينا أغاني ع وراق

غنية لواحد مشتاق
و دايما بالآخر في آخر
في وقت فراق ..

أغمضتُ عينيَّ ولم أعد أرى شيئاً ودموعي تحرق وجهي، ولم يكترث أحداً لي وسط حماس الجمهور وسكره في حضرة فيروز التي أكملت غنائها، بكرة برجع بوقف معكن، إذا مش بكرة البعدو أكيد. كانت أغنية وداع ودموع ووجع. غطيتُ وجهي بكفي وبكيتُ بحرقة أمام اندهاش أخي وزوجته وصديقتيَّ. ربما ظنوا انفعالي نتيجة حنيني إلى لبنان بعد أن شارفت مدة دراستي على النهاية، لكن وليد وحده يعرف سبب بكائي.

طلبت مني فدوى أن أهدأ، لكني لم أتمكن من إلجام انفعالاتي تلك اللحظة، كما لم ألجم مشاعري فأحببته ضاربة بكل شيء عرض الحائط. خرجتُ من قاعة المسرح بسرعة وهو ورائي والموسيقى مازلت تعزف بعد أن اختفت جارة القمر عن الأنظار والجمهور يهتف باسمها ويطالب بعودتها. أمسك بيدي بقوة فقلتُ له بانفعال: أرجوك .. لا تقل شيئاً.

أخرجتني فدوى من ذكرياتي عندما اتصلت تخبرني بأنها قررت الزواج من بشير وستقيم حفلة الزفاف بعد شهرين. استغربتُ زواجها بهذه السرعة، فأجابتني بسعادة: لم نجد سبباً للانتظار .. سنسافر إلى قبرص ونتزوج مدنياً هناك. تمنيتُ لها السعادة الأبدية، وهنأتها على شجاعتها بالزواج

خارج الكنيسة لاختلاف المذاهب، فلقد وجدت درب سعادتها. تعلمت وسافرت، ثم وجدت شريك حياتها وتستعد للزواج به وإكمال الحياة معه. كل امرأة سعيدة تشبه الأخرى، لكن التعيسة لا يشبهها أحد، فلها وجعها وجروحها الخاصة.

عدتُ إلى الشقة وبدت هيام وابنتاها معّجوقين بأمر ما، كما جاء أخي مبكراً على غير عادته. وقتها تذكرت تاريخ اليوم، الحادي والثلاثون من آب، وهم سيحتفلون بعيد ميلادي الذي أعتبره مناسبة خاصة بي ولا أحتفل به. يكفيني أن يعايدني أحبائي ويقدمون لي تهنئة صادقة وتمنياً بحياة سعيدة، فكل يوم نجاح هو عيد ميلاد لي. قطعتُ قالب الحلوى وأصررتُ على إبقاء الشموع مشتعلة فأنا لا أحب إطفاءها في الأعياد.

***

بدأت الأسئلة تتسلل لي بهدوء.

لماذا أحزن كل هذا الحزن على علاقة غير سوية؟ ولماذا مشيت في درب معتمة منذ البداية؟ ولماذا تهتُ وأنا ألحق بقلبه الذي تسبب بعذابي. لماذا؟ لأني مجنونة طيرها الحب من سماء ميامي إلى سماء بيروت وأعادها. ساندرا تقول بأن علاقتنا لم تكن فاشلة أبدا، برأيها كانت مش ضابطة.

صليتُ داعية من الله أن يوفقني، فأنا أمشي خطواتي الأخيرة نحو الدكتوراه ولم تبقَ سوى عدة أيام على مناقشة الرسالة التي أعددتها عن أثر الحضارة الفينيقية على الهندسة العمرانية في العالم. أغمضتُ عينيّ ووليد لا يبارح تفكيري. لقد انهارت صروح أحلامي ذلك اليوم الذي غنت فيه جارة القمر. انتهت الحفلة وعدنا معاً. كان قلبي يبكي في السيارة وهو متجمد وساكت، لم يواسني ولم يمسح دموعي ولم يمسك بيدي. تغير ناحيتي منذ ذلك اليوم فلم يعد يقضي معي أوقاته ويتعذر بأنه لا يريد أن يشغلني وأنا أستعد لامتحاناتي النهائية ولمناقشة رسالتي. ربما أستيقظ قلبه من السبات الذي عاشه لسنوات، وحّن لزوجته التي تركها وراءه وجاء ليصطاد قلبي. جاهد نفسه ليكون طبيعياً خلال أسبوعين هي مدة امتحاناتي. كان يأتي لرؤيتي ويطمئن على مذاكرتي ويشرب معي فنجان القهوة ويعود إلى شقته بسرعة. لم يكن يحدثني عن عمله ولا خططه ولا بم يفكر فعرفتُ بأنه سيسافر ولكني ظللت متشبثة بالأمل.

أنهيتُ امتحاناتي، وبقيت مناقشة الرسالة. لم أنم ليلتها وبقيت مستيقظة تارة أفكر برسالتي، وتارة أفكر به. أحاول أن أقنع نفسي بأنه لا يستطيع أن ينساني بهذه البساطة، ثم أعود وأتذكر عينيه وبرودتهما وأفقد الأمل ببقائه. وعندما جاء الصباح، نهضتُ وارتديت ملابسي وأفكاري تتجه نحوه. أهديت إليه رسالتي الذي ساعدني في إعدادها

ووعدني بأن يحضر معي المناقشة ولابد أنه غير مهتم الآن، ولن أطلب منه مرافقتي إذا لم يتذكر. أعددتُ فنجان قهوة ارتشفته وأنا أفكر بالغموض الذي يحيط بمصير علاقتنا. أنا أسير معه في طريق وعرة، لا اعرف نهايتها، كشخصيته الغامضة. دق جرس الباب وجاء، أعددت ركوة قهوة ثانية وشاركني ارتشافها.

حتى قهوتي لم يمتدحها ذلك اليوم.

ذهب معي إلى الجامعة، وجلس في الأماكن المخصصة للضيوف. كنت جالسة بجانب عدد من الزملاء أصلي وأناجي العذراء حتى جاء دوري. شرحتُ ملخص الرسالة وبدأت أعضاء اللجنة بطرح بعض الأسئلة ومناقشة الأطروحات والنظريات والنتائج. وعندما أعلنت اللجنة منحي درجة الماجستير اقترب مني أمام الجميع بابتسامة زائفة. ضمني وهنأني وهو يداري عينيه عني. حاول أن يتصرف معي كالمعتاد لكني لم أكن سعيدة، فأنا أعرف بأنه يجاهد ليبدو طبيعياً.

في المساء جاء لشقتي حاملاً معه الورود ولم أمد يدي لأخذها منه. وضعها بحرج على الطاولة، وظل مكانه لا يجرؤ على قول شيء. شكرته ودعوته إلى الجلوس، فاختار مقعداً بعيداً عني. سادت لحظات من الصمت قطعها حينما أعلمني بقراره. حجز تذكرة الطيران منذ مدة وسيعود بعد

أقل من أسبوع إلى السعودية. أحسستُ بأنه سحق أحلامي بلحظة، وبأن كلماته تسحب الهواء من صدري وتخنقني ولم أعرف ماذا أفعل، فسألته: وأنا؟

أبتلع ريقه وقال متفادياً النظر إلى عينيّ الممتلئتين بالدموع بأنه كان متهوراً وطائشاً عندما ترك قلبه يتكلم بدون أن يحاسبه، وأندفع وراءه مسبباً له ولي الأذى. سكت للحظة ثم أردف محاولاً تخفيف وقع كلامه عليّ:

- ستعودين إلى بيروت وستنسيني .. سأصبح ذكرى ربما تمر ببالك وربما لا .. ستلتقين بالرجل المناسب بالتأكيد.

نهضتُ من مكاني وقلت له بانفعال وجسدي كله ينتفض:

- أي سعادة سأشعر بها بعيدة عنك.

تنهد وقال بأنه سيتذكرني دائماً، وعاد ودعا الله أن ألتقي بالرجل القادر على منحي الحب. ظللتُ منصتةً له ودموعي تنساب من عينيَّ، وهو يتحدث بتأثر وحنين لم يتمكن من إخفائه عن صعوبة اتخاذ القرار، وعن تفكيره الدائم بشمس وماذا تفعل في غيابه. تردد قبل أن يعترف لي بقسوته عليها، وبأنه يحبها ولابد أنها تنتظره فالغضب الذي كان يملأ صدره جعله يتصرف نحوها بكثير من الجفاء وعليه مواجهة الأمر ملقياً عتبه على المسافات، فهي تجعلنا نقسو ونتناسى ونجافي، وفي الوقت ذاته تجعلنا نشتاق ونحب ونجن.

لم أفكر بالذل الذي يصيبني جراء أي مبادرة أقوم بها رغبة بعطفه على قلبي عندما عانقته بقوة. قلت له بأني لا أستطيع العيش بدونه، فتنهد وسكت. أحسستُ بجموده، لم يضع يديه عليّ و أنا أعانقه، برودته جعلت قلبي يتجلد فابتعدت عنه واتجهت نحو النافذة أنظر إلى الحديقة بصمت. اقترب مني وكلمني برفق: ميراي .. لا تبكي.

استدرتُ إليه ووجهي الغارق بالدموع فاجأه، فطلب مني أن أتعود على غيابه. لم أقل له شيئاً وهو واقف أمامي يراقبني بعينين متجمدتين، وكأن كل الإعجاب والشغف اختفيا منهما فجأة. بكيتُ ورأسي منكسة ودموعي تسقط من عينيَّ بغزارة أغرقت وجهي، ولم يمد يده هذه المرة ليمسحها. كان دائما يقول بأنه لا يحب أن يراني أبكي والآن لم تعد دموعي تعنيه أو تأثر به. تنهدتُ بغصة وسألته بعينين منهزمتين:

- هل أنت متلهف لرؤيتها؟

كان صريحاً للغاية فهز رأسه وقال:

- أنا مشتاق لها .. كنت قاسياً معها ولا أدري إن كانت ستسامحني.

صدمني كلامه، فأغمضتُ عينيَّ وقلت له بألم بأنها ستغفر له إذا كانت تحبه، فباغتني بسؤاله:

- وأنتِ .. هل ستسامحينني؟ .. لقد سببت لك الأذى أيضاً.

نظرتُ لعينيه وقلت: أنا أحبك أكثر مما تتصور.

أمسك بيديّ طالباً مني برجاء أن أنساه وكأنه لم يمر في حياتي ولا أعرف اسمه، ففقدتُ السيطرة على أعصابي وصرخت فيه. ماذا يريد مني أن أفعل كي أنساه بكبسة زر، هل أقتلع قلبي من مكانه لكي لا أشعر بشيء حياله؟. لاحت نظرة أسف في عينيه، فأردفتُ وأنا أشهق الهواء بصعوبة:

- لا تخف .. لن أعاتبك ولن ألومك .. وسأضع حجراً مكان قلبي لكي أكون بقسوتك وجبروتك.

اعتذرتُ منه بانشغالي وذهبتُ لغرفتي. لا أريد أن أراه، ولا أن أسمع تبريراته وكلامه. جلستُ على مائدة العشاء ليلتذاك في شقة إلياس متلافية النظر إليه، لا أريد أن أرى شمس في عينيه وهو يعلن إلى الجميع بأنه اتخذ قراره بالسفر والعودة إلى بلده، وبصوت حزين يملؤه الامتنان شكر أخي وزوجته. راح كل واحد يتحدث عن مشاعره وما يدور في قلبه تجاه عودته سواي، فها أنا أجني ثمار اندفاعي نحوه ولا أستطيع أن أتكلم وأشتكي لأحد.

***

يبدو بأنه موسم الإخفاقات العاطفية.

ذهبتُ مع أخي وزوجته إلى الحفلة الموسيقية للعازفة الروسية بولينا اوستينسكايا التي لم تعزف على البيانو وحسب، بل عزفت على قلبي وجروحه أيضاً. عزفت

وعيناها مغمضتان بتأثر، فهمست هيام في أذني بأن الصحافة نشرت خبراً مفاده بأنها انفصلت عن حبيبها مؤخراً ولهذا تعزف بهذا الكم الهائل من الحزن. زممتُ شفتيّ فصديقتي لينا أخبرتني في آخر حديث بيننا بأنها انفصلت عن حبيبها كريم بعد أكثر من عامين على حبهما وسنوات من الصداقة.

انتهت الحفلة قبل منتصف الليل بقليل، عدتُ لغرفتي وأشعلت سيجارة رحت أسحب منها أنفاسا سريعة والأيام الأخيرة قبل سفر وليد تحرّكش في قلبي وذاكرتي. أحسستُ برغبة عارمة في الحديث معه ووجدتُ مفاتيحه معلقة في الباب من الخارج. أخذتُها ودخلت بتردد وأنا أفكر بما سأقوله له. سأكون ثابتة وقوية، ولن أبكي مهما حدث ومهما قال لي. سأخاطر فالذي لا يخاطر بشيء لا يفوز بشيء كما يقول المثل الفرنسي، وسأطلب منه شرحاً لما ستؤول إليه علاقتنا بعد أن يسافر، فعلينا أن نواجه الأمر معاً، ولن أدع مصير علاقتنا بيده وحده.

لم أجده في صالة شقته فألقيت نظرة على غرفة نومه، ووجدته مستلقياً على سريره، نائماً بملابس العمل. خرجتُ من الغرفة ووضعت مفاتيحه على طاولة الصالة فاسترعى انتباهي ألبوم صور يحتوى على صوره مع أخي وعائلته، وصور مع زملائه في الشركة، وصور عديدة معي في الأماكن التي نقصدها، وبدون تردد أخرجتُ جميع الصور

التي أظهر فيها، لم أرده أن يرى صوري لاحقاً ويتجاهلني كأن شيئا لم يكن.

***

شكرتُ الله الذي يحيطني برعايته عندما أنهيت امتحاناتي النهائية بنجاح، وصلّيت بخشوع ليوفقني في مناقشة وشرح رسالتي. خرجتُ برفقة هيام يومها إلى الجامعة بحماس وخوف في الوقت ذاته. تذكرتُ صلوات أمي البارحة وهي تدعو الله أن يوفقني، وأعود إلى لبنان بأقرب وقت. وقفتُ بثبات أمام اللجنة أشرح وأناقش وأجيب على أسئلتهم النظرية. عانقتني هيام عندما أعلنت اللجنة منحي درجة الدكتوراه، وبكيتُ عندما اتصلت بوالديَّ وأخبرتهما بذلك وبأني أستعد للعودة حالما أنهي أوراقي.

الله معك يا قلبي.

رجعتُ بذاكرتي إلى الوراء. لم أكن أشعر بغير الألم في اليوم الذي أستقل وليد طائرته ورحل. كنتُ حزينة ويائسة، وبقيت في غرفتي. طرق بابي وطلب أن يراني، ففتحت له وعيناي متورمتان من البكاء. سألته بحدة عن سبب زيارته، فبلع ريقه وأخبرني بأنه ذاهب إلى المطار. تمنيت له أن يصل بالسلامة بدون أن أنظر له، ويبدو بأن نبرتي الجافة فاجأته. غاص في داخله وقال: جرحتك كثيراً لتودعيني بهذه

الطريقة. أغضبني كلامه فلا أعرف حقاً ما الذي يريده مني؟ قلتُ له بحدة:

- جروحي لا تعنيك .. فلّ من هون.

بلع ريقه بحرج، ومد يده لي متمنياً أن يراني يوماً. نظرتُ إلى عينيه المتأثرتين ويده مازالت ممدودة لي، وأكدتُ له بأني سأكون مع زوجي وأطفالي وقتها ولن أتذكره. لم أمد يدي له فاستدار وذهب، وتركني منهارة. حاولت فدوى مواساتي فالحياة لن تنتهي بسبب رجل لم يكن لي وإن كنت أحبه. لكني شعرتُ بأن الحياة لم يعد لها معنى، فماذا سأفعل بعد هذه الهزيمة. قلت لهما والدموع تغرق وجهي والتعب بدا عليّ من كثرة البكاء: صخرة الروّشة تنتظرني حالما أصل بيروت. انفعلت لينا، واتهمتني بالجنون لأني تركت جميع رجال العالم وأحببتُ رجلاً سعودياً تكبله الكثير من العقد.

***

ليت نوارس ميامي تأخذني على أجنحتها إلى بيروت.

تسوقتُ كثيراً واشتريت الهدايا لوالديَّ ولأختي ولصديقتيَّ. حاصر قلبي الحنين إلى لبنان من كل الجهات، وأبقى على حب وليد داخله. مازلتُ أتذكره ولكن ليس بضعف، فأنا الآن أقوى وأواجه حبه بثبات بعد أن أعدت

ترميم ما هدمه في قلبي. لست سعيدة ولكني لست تعيسة أيضاً، لست متفائلة ولكني لست متشائمة ومحبطة. أنا في حال وسط بين حالتي معه وحالتي بعد رحيله، فعلاً الوقت يملك قوة خارقة في تخفيف حزن ووجع ولوعة الحب، لكنه لا يقتله.

قضيتُ الليلة قبل الأخيرة في غرفتي، أشرب القهوة بطعم السيجارة، ومستغرقة بالتفكير في نفسي وكأني أكتب سيرتي. أنا ميراي غسان أسمر من مواليد مدينة جبيل الساحلية العريقة والتي تفوح منها رائحة التاريخ، وتسافر سفنها إلى أرجاء الدنيا. تحافظ على ماضيها بكل اعتزاز، سوقها العتيق، وقلعتها المتكئة على البحر، وكنائسها ومساجدها تشهد على ذلك. هي من أقدم المدن المأهولة في العالم، ويعتقد المؤرخون أن مجموعة من الصيادين بنوها قبل سبعة آلاف سنة. حكمها الفينيقيون وأصبحت في عهدهم أول مدينة فينيقية مرتبطة تجارياً بمصر تصدر زيت الزيتون وخشب الأرز والنبيذ، وأطلق عليها اسم جبيل وتعني الورق بسبب الأهمية التي اكتسبتها في تجارة ورق البردي، وما زلنا نحب تسميتها باسمها القديم بيبلوس.

أبي الدكتور غسان من أمهر جراحي العظام في لبنان حالياً، وبعد تخرجه تزوج من أمي. معموديتي كانت في جبيل حيث عشتُ طفولتي فيها وبين ضيّعها، وكنت في الثامنة من العمر عندما انتقلنا إلى بيروت لظروف عمل

والدي. أختي نادين تزوجت مبكراً وسافرت مع زوجها إلى أستراليا، ثم استقرت في دبي وأنجبت أولادها الثلاثة وتأتي لزيارتنا في الصيف ولا أظنها تفكر بالعودة والاستقرار في لبنان. أخي إلياس درس الطب في بيروت، وبعد تخرجه تزوج من ابنة جيراننا هيام بعد قصة حب هادئة وسافر أواخر الحرب الأهلية إلى أمريكا وأنجب هناك ابنتيه. أما أختي ساندرا فعاشت قصة حب عاصفة مع زميلها في الجامعة، وكان ناشطاً في أحد الأحزاب السياسية، وانتهت بزواجها من زوجها الحالي وإنجابها لولديها متناسية بأنها هددت والدي أكثر من مرة بالانتحار إذا لم يوافق على زواجها من حبيبها السابق.

لكل شيء نهاية، الحب والضجر، والسفر.

حزمتُ حقائبي وقضيتُ يومي الأخير بالتجول في ميامي. تمشيتُ في شارع لنكولن الحيوي والمزدحم بالفنادق والمحلات التجارية والمطاعم والمقاهي والمكتبات. أحسستُ بأني لم أعد مبهورة بها وبشواطئها وهندستها وأسواقها وحياتها الترفيهية، فهي بكل حيويتها قبيحة ومملة بدون وليد. مررتُ بالشاطئ وقضيت بعض الوقت أمشي حافية القدمين أفكر بكل شيء وبلا شيء. جلست على الرمل أتأمل الغروب الأخير، وفجأة تنبهت له. الشتاء والهواء البارد الذي حرك الأغصان واللوحات والأفكار والأوجاع. ذكرتني لفحات الهواء بأغنية رجعت الشتوية، نعم فالهوى مشاوير

ورحلتي انتهت. عدتُ لشقة أخي قبل موعد العشاء. قضيتُ بعض الوقت مع هيام وابنتيها، فدائماً أشعر بالتقصير تجاه المقربين مني، وبقدر ما أحبهم بقدر ما أشح عليهم بوقتي.

قلبي يسايرني، أم أنا أسايره.

أعترفُ بأني لم أستطع محوه من ذاكرتي فأنا لا أملك قوى خارقة لأتحكم في قلبي الذي لا يعرف مصلحته، ولا يعرف أن الحب يؤذيه ويتعبه ويتعبني معه. قضيتُ أكثر من سنتين في عزلة عن الناس، لا صداقات ولا سهرات. صادقتُ نفسي وأشعر بأني تغيرت، أصبحت أشرب القهوة أكثر، وأدخن أكثر، وأنام أكثر لا لأحلم به بل لأنساه. أصبحت رايقة فلا شيء يستفزني ويعصبني بسهولة كالسابق. لم أعد تلك الانفعالية التي تسبق ردة فعلها أفكارها في كل شيء، في الفرح والحب والغضب. أصبحتُ حساسة أكثر، تتساقط دموعي من أية كلمة أو موقف أو مشهد سينمائي. أفضلُ العزلة على مخالطة الناس، فهي شاقة كما يقول أفلاطون، لكنها تساعد على صياغة النفس واكتشافها من جديد ولرؤية الحياة من منظار مختلف كما كان يقول وليد.

أسلمتُ رأسي لمخدتي، وبقيت لحالي ومع حالي ولم يغلبني النوم. قضيتُ ليلتي في التدخين وشرب القهوة حتى حان موعد سفري. أخفيت جفوني المتعبة بنظارتي الشمسية،

وذهبت مع أخي وزوجته إلى المطار في الصباح الباكر. ضمني إليه ففاضت عينايَ بالدموع، ولابد أنه شعر بهشاشتي وبالضجر المختبئ في غرف قلبي. طلب مني أن أتماسك، فبكيتُ أكثر وكأنني أنتظر التشجيع على البكاء. عانقتني هيام، ومسحت دموعي وصلّت من أجلي، ثم باشرتُ إجراءات السفر.

***

عُدت يا بيروت.

هاأنا أسعى للإفصاح عن مشاعر الشوق والحنين التي بدأت تجتاحني والطائرة تهبط في مطار بيروت. تجاوزتُ موظفي الجوازات ووجدت والديَّ وأختي ساندرا بانتظاري. غمرتهم في قلبي وأحسست بأني أغمر بيروت، والبحر والجبل، وبيتنا في الأشرفية، وأشجار الأرّز، والمقاهي والشوارع والمسارح وأماكن السهر وصخرة الروشة وكل الأشياء الجميلة التي تركتها. دخلتُ غرفتي وعيني منداة بدموع الحنين، وقد زينتها أمي بالورود والشموع وحلفتني بالسيدة العذراء ألاّ أسافر مرة أخرى. تمنيتُ وقتها أن أخرج لأتجول على قدميَّ في ساحة ساسين، وأشرب فنجان قهوة على أحد مقاهيها، لكن أمي طلبت مني أن أرتاح اليوم وغداً أفعل ما أريد. جلستُ مع أمي وأختي نشرب القهوة ونتحدث، أخبرتهم بأهم ما جرى هناك، ولاحقاً اتصلتُ بفدوى التي

أخبرتني بأنها حامل في شهرها الأول، ولينا عادت لحبيبها السابق وتستعد للزواج بعد أسابيع قليلة.

اشتريتُ سيارة جيب سوداء جديدة، وعاودتُ عملي في الجامعة، كما بدأت بالاستعداد لزواج لينا. اشتريت فستاناً يحمل توقيع مصمم مشهور، وحجزت موعداً لدى خبير تجميل. كانت يومياتي متشابهة، أستيقظ صباحاً وأشرب مع أمي فنجان قهوة ثم أتوجه إلى الجامعة وأشرب فنجاناً أخر في مكتبي قبل أن تبدأ المحاضرات والندوات والورش التدريبية والعملية التي تنتهي في الرابعة بعد الظهر. أعود إلى المنزل وأتناول غذائي، وأحياناً أمرّ بأختي ساندرا لأتناول غذائي معها.

أمسياتي مخصصة للقراءة ومشاهدة التلفزيون، ويعّن ببالي أحياناً، السير في طرقات بيروت وأنا أستمع للإذاعة المحلية ألتقط الأغاني الحزينة. أصبح التعرف على المقاهي من هواياتي الجديدة فكثيراً ما أجلس في مقاهي ساحة ساسين، إحدى أكبر ساحات بيروت وأقدمها وتنتشر على جوانبها الباعة الجوالة والبوتيكات الراقية والمراكز التجارية والمطاعم والمقاهي، ويتوسطها نصب لشهداء الأشرفية. الساحة القديمة الجديدة موجودة منذ عقود وأعيد تأهيلها وترميم عماراتها ومبانيها بعد الحرب. أصبحت واجهة الأشرفية ومرآتها التي تعبر عنها وطنياً وسياسياً واجتماعياً، وترتدي الحلة الملائمة لكل المناسبات والأعياد.

أنا مستمرة بالبحث عما يذكرني به.

أصبحتُ أقوم بأشياء لم آلفها وتلفتني أمور جديدة. أحبُ الجلوس في المقاهي أشرب القهوة وأدخن و أكتب في أي ورقة أمامي اسم وليد وجملاً وكلمات غير مفيدة، لكنها ترتبط بي في اللاوعي. في العطل الأسبوعية أشاهد مسرحيات غنائية قديمة، علّني أكون زنبقة أو سوسنة أو غلة قمح في ضيعة لبنانية مفصلة بقياس فيروز والرحابنة. أحياناً أمارس رياضة المشي حافية على شاطئ الرملة البيضاء، أو بمحاذاة البحر في ميناء جبيل القديم. أتمشى بسيارتي في ضواحي بيروت ليلاً، أبحث عن لا شيء. أذهلني اكتشاف مطعم ايطالي راقٍ يطل على خليج جونية الساحر بديكورات ذكرني بذلك المطعم الذي احتضنني مع وليد في ميامي، و يخبئ ذكرياتي بين زواياه ولوحاته، ويحتفظ بدموعي على طاولاته.

***

خرجتُ من مركز التجميل برفقة أختي ساندرا وذهبنا إلى الكنيسة فاليوم ستتزوج لينا بكريم. أعلنهما المطران زوجاً وزوجة في الصحة والمرض، والرخاء والشدة والغنى والفقر. لا أدري لماذا اغرورقت عيناي بالدموع وهما يلبسان محابسهما الذهبية ويتبادلان القبّل وسط تصفيق الجميع. فجأة انتابتني رغبة عارمة برؤية وليد، وصليتُ لكي أراه ولو لمرة واحدة. لا أريد منه شيئاً سوى أن أطرح

عليه سؤالاً واحداً، لماذا لم يحبني؟ ألا يملك قلباً ولا يعرف كيف يحب، أم انه لا يريد أن يُحب وهذا هو الأدهى.

خرج العروسان والحضور إلى المطعم الذي ستقام فيه حفلة الزواج، واعتلى مسرح المطعم مطرب مغمور راح يغني أغنيات معروفة لأشهر الفنانين. قضيتُ السهرة مع أختي ساندرا، وصديقتي فدوى وزوجها المنسجمين رغم عدم زواجهما عن حب كبير ولكن بينهما احترام وتفاهم متبادل، وقد قالت لي فدوى مرة بأن الاحترام أهمّ من الحب. التقيت بعض الأصدقاء القدامى، وشاركتُ الجميع الرقص فلقد أشعل المغني الحماس والفرح عندما شدا بالأغاني التراثية واشتبكت الأيادي وتحلّق الجميع في حلقات الدبكة. قدم مضيفو المطعم الأنخاب، فشربتُ نخب سعادة العروسين، وبعد قليل كانت بين يدي كأس أخرى شربتها دفعة واحدة، ثم شربتُ الثالثة. قالت لي أختي حينها: هل جننتِ .. لما تشربين بهذه الشراهة .. رح تسكري.

شعرتُ بأني بدأت أفقد اتزاني وانتابتني حالة من الخفة والثقل عندما بدأ الخدر يصيبني، لكنني أشعر بالسعادة وأرغب بالمزيد. مر بجانبي المضيف يحمل صينية بها عددٌ من الكؤوس فنهضتُ لأخذ كأسٍ. اصطدمتُ بالكرسي ولا أعرف لماذا ضحكت وأنا أشعر بالمرارة في قلبي. بدأت أترنح فقررت ساندرا إعادتي إلى المنزل، وطوال الطريق كنت أثرثر وأضحك على نفسي وخيبتي، أسمع ما تقوله

أختي ولا أستجيب لها، واعية ولا أتمكن من السيطرة على تصرفاتي وكلامي وانفعالاتي. استقبلتني أمي بهلع:

- شو بها؟
- أسرفت في الشرب قليلاً.

ساعدتني أمي على الصعود لغرفتي والاستلقاء على السرير. نزعت حذائي وهي تتذمر، وهذا آخر ما كنت أتذكره قبل أن أغط في نوم عميق.

فتحتُ عينيَّ ظهراً على صوت أمي تدعوني إلى الاستيقاظ من النوم وهي تفتح ستائر النافذة لتسمح لأشعة الشمس بمساعدتها في إيقاظي. شعرتُ بالصداع يطرق رأسي من كل جوانبه وأمي تحثني على شرب القهوة فشربت فنجاناً أشعرني بقليل من التحسن. دخلتُ إلى الحمام لأستحم ولأهرب من أمي التي مازالت تتذمر لرجوعي من السهرة سكرانة. وقفتُ تحت رشاش الماء البارد الذي أيقظ آخر خلايا جسمي الثملة والنائمة فجاءت صورة وليد أمامي وهو بكل جموده وقسوته الذي جرحا قلبي.

نزلتُ للمطبخ لأعد لي فنجاناً آخر من القهوة عندما جاءت أمي تعلمني بقدوم شارل لزيارتي. كيف علم بأني عدت إلى بيروت؟ وماذا يريد مني فلقد كنت صريحة معه في آخر لقاء بيننا قبل سفري. رفعتُ ركوة القهوة من النار ووضعتها جانباً، وذهبتُ له مسرعة ومنفعلة فعليه أن يكف

عن ملاحقتي. وجدته جالساً على الأريكة وبين يديه باقة من ورود الأوركيد وحالما رآني نهض وقدمها لي. شكرته وجلستُ صامتةً فأنا لا أحب أن يبتزني أحد بمشاعره، لكنه لم يطل صمته وأخبرني بأنه جاء ليودعني فهو سيسافر إلى كندا. تمنيتُ له التوفيق ولم أقل شيئاً آخر. بدا وجهه مكتسياً بالصدمة لبرودي وصمتي ولم أهتم، ليُصدم وليجرح ولينكسر قلبه فماذا سيحدث له، لن يموت من الحب واللوعة فها أنا أمامه مثال حي. ما كسره وليد فيّ جعلني قوية، وأمام جمودي لم يجد سوى أن يودعني ويخرج.

***

بناءً على نصيحة أختي ساندرا اتبعت حمية لأخفف بعضا من الكيلوغرامات الزائدة التي كانت تكسبني مظهراً ممتلئا يعجب وليد. كما ذهبتُ إلى صالون التجميل بناء على نصيحتها، لأغير قصة شعري عل نفسيتي تتحسن وأعود لسابق عهدي. طلبتُ من المُزين أن يقوم بما يراه مناسباً لي فسألني مبتسما إذا ما كنت أعيش قصة حب جديدة. زممتُ شفتي، وأخبرته بأني خارجة من قصة حب فاشلة امتدت أثارها في نفسي لأكثر من سنتين والآن انتفضتُ عليها. اقترح عليّ أن أقص شعري قصيراً وألوّن بعض خصلاته بلون بلاتيني يتناسب مع لون شعري البني فوافقته:

- أريد أن أكون ميراي جديدة.

أومأ لي وقال:

-   هذا يعني بأنك تقبلتِ ما حدث.
هززت برأسي موافقة فغمزني مبتسماً وهامساً: كل قصص الحب فاشلة.

تقبلتُ واقعي، وانتفض قلبي على نهايته.

عليّ أن أكون قوية، كأختي ساندرا التي تصدت لعواطفها حالما تخطت حدود العقل، وربما أتزوج أيضاً كما تزوجت هي. يجب أن أكون كحبيبتي بيروت، قوية وصامدة وعاتية، برغم المآسي والحصار والتمزق والدمار. مازلتُ أتذكر وليد ومازلت أحبه، ولكني صرتُ أقوى. أفكر به مستنكرة تصرفاته معي لكني لم أعد أبكي بسببه، وها أنا أبدأ مرحلة جديدة من حياتي بعد أن تجاوزت هذا القطوع الخطير. أنجزتُ نجاحاً بحصولي على الدكتوراه في وقت قياسي، فعلى ما يبدو وراء نجاح المرأة رجل جرحها وحُب فاشل. أدركتُ أن العيش بين ذكريات الماضي ممتعٌ رغم الألم، لكن حياتي العملية والاجتماعية يجب ألاّ تتوقف. سأتجاوز مرحلة الفشل وأدير ظهري للماضي فاتحة ذراعيّ للمستقبل. لقد أعماني الحب ورحت أتشبث بكمشة الذكريات، لكن قلبي قام من آلامه وجلجلته.

تغير روتين حياتي، انشغالاتي باتت كثيرة وبدأت حياتي تمتلئ مجدداً بالناس والأحبة بعدما اقتصرت عليه. يخطر ببالي دائماً ولكن تأثيره فيّ بات مختلفاً، مازلت أحبه بالقوة

نفسها ولكن الطريقة اختلفت فلم أعد أشعر بحالة اليأس والاكتئاب الذي رافقتني منذ رحيله. وضعتُ قلبي في ثلاجة وأعطيت السلطة لعقلي ليتصرف. أتذكر دائماً ما قالته ساندرا لي: إذا عذبك قلبك دعوسيه وارميه في البحر .. فيجب أن يعمرّك الحب لا أن يدمرك.

أعترف بأن مشاعر الإحباط والخيبة خلقت في بالي أفكاراً سوداء، وربما شريرة. تمنيتُ لو أنني من فجر مركز التجارة العالمي في الحادي عشر من أيلول، وليكن يومها عيداً لليائسين والمجروحين والمجانين، ولتكن كل هذه الكوارث والحروب في العالم نتيجة لفشلي العاطفي. تخيلتُ نفسي أتسلل إلى إسرائيل وأنفذ عملية انتحارية هناك ليكون لها صدى واسع في العالم وليتحدث عنها الإعلام ألف سنة وأهديها إلى وليد، أو أغتال شخصية بارزة كرئيس دولة أو رجل سياسي مهم عن طريق إرسال قلبي له في طرد بريدي مفخخ، وربما أفجر بوسطة في عين الرمانة ولتولع حرب من جديد انتقاماً لقلبي.

بدأتُ بالبحث عن السعادة، مغتنمة فرصة الأعياد المجيدة بداية بليلة الميلاد ومروراً بليلة رأس السنة التي احتفلتُ بها في وسط بيروت مع صديقتيَّ وأزواجهما. وفي عيد سان فالنتين ارتديتُ الأحمر وحضرت حفلة غنائية بصحبة أختي وزوجها وبعض الأصدقاء. وها هي ستة أشهر انقضت على عودتي من ميامي، ومازلت قوية وصامدة برغم كل شيء.

برغم الخيبة التي خلفها حبه في قلبي، وأحاول الحفاظ عليها سراً، لا أشارك بها أحداً محتفظة بمشاعري وأفكاري وهواجسي لنفسي، ففي حضرة ذكريات الحب لا يليق بنا سوى الصمت.

***

لكل شيء زمان، ولكل أمر تحت السماوات وقت.

أغلقت الجامعة أبوابها إيذاناً ببدء الإجازة الصيفية، وقررت أن أعيش إجازتي بالطول والعرض. جلستُ يومين في المنزل أعيد ترتيب أولوياتي ومخططاتي. تارة أفكر بقضاء الإجازة هنا، وتارة يخطر ببالي السفر إلى قبرص أو اليونان، لكن أمي تمنت عليّ البقاء فبقيت. قررت أن أستغل إجازتي بالتسوق وشمّ الهوا، والاقتراب من العائلة والأصدقاء، إضافة لخطط أختي ووالديّ بالذهاب لقضاء عدة أيام في بيتنا الصيفي في صوفر عندما تأتي أختي نادين من دبي.

تناولتُ غذائي في أحد مطاعم وسط بيروت، وشربتُ فنجاناً من القهوة السادة قبل أن ابدأ جولتي. اشتريتُ عدداً من الأشياء التي أحتاجها والتي لا أحتاجها، فالتسوق علاج ناجح للخيبة العاطفية. اشتريتُ عدداً من اسطوانات الفيديو لأفلام كوميدية ورومانسية مؤونة لإجازتي فأنا أحب

مشاهدتها في البيت عشية. أكملتُ جولتي رغم الشوب مستمتعة بمراقبة الناس والسياح، والمقاهي المليئة بالناس الباحثين عن وقت للاختلاء بالنفس، أو الراحة من كثرة المشاغل وهموم الحياة، أو للحرتقة والنّق وإضاعة الوقت.

لا أدري لماذا تسترق عيناي النظر لكل زوجين أو حبيبين معاً، لكن قلبي رجف فجأة ولاحت صورة وليد ببالي. صليتُ للرب طالبة منه أن يمدني بالقوة، وتجاهلتُ هذا الإحساس مكملة طريقي أنظر لواجهات المحلات. قلتُ لقلبي كفى، فلقد اتفقنا على أن الحكاية انتهت وذهب كل شيء إلى النسيان. لكن صورته أبت مفارقة عينيّ، وها هو رجل في بوتيك الأحذية يتقمصه في هيئته وجاذبيته وطلّته ومشيته. ضحكتُ على نفسي فهو مازال يسكنني وأصبح يظهر لي في وجوه الرجال، وأنا أدعي بأن تأثيره فيّ بات أخف.

يبدو بأنه جعلني، مهووسة أو مجنونة.

لكن ذلك الرجل لم يكن يشبهه فقط، بل يتلبسه بطوله الفارع وبنيته القوية، شعره البني الفاتح ووجهه المفعم بالرجولة والعنفوان. صرختُ باسمه بلهفة وشوق فاستدار لي. إنه وليد، وها أنا أراه بعد ثلاث سنوات ذابت خلالها روحي من التفكير به، وبعد أن ذبحني الانتظار والبعد والشوق والضجر. ركضتُ نحوه وهو ينظر لي بنظرات

حيادية أخافتني. احتضنته بين ذراعيّ، وقلت له: حبيبي وليد .. مش معقول .. أراك من جديد .. اشتقتلك كتير.

ظل صامتاً ينظر لي بعينيه اللتين أخذتني معهما إلى آخر الدنيا، وسكوته أعادني إلى مكاني والخوف يغزو قلبي. تكلم بعد لحظات صمت وذهول: ميراي .. معقول! صعقني رده فعاتبته:

- ولو .. لا تقل بأنك نسيتني فهذا كثير.

بلع ريقه وأراد أن يتكلم فلم أعطه فرصه. سألته:

- منذ متى وأنت هنا ؟
- أسبوع.

طلبتُ منه التحدث خارج المحل، لكن امرأة تضع فولاراً على رأسها اقتربت منه وأمسكت بذراعه وكأنها تقول لي بأن هذا الرجل لها. كيف لم أتنبه لوجودها عندما عانقته أمام عينيها المخفيتين بنظارة شمسية سرعان ما رفعتها فتعرفت عليها فوراً. هي تلك المرأة القابعة في ذلك الإطار بجانب سريره. هي شمس التي تجاهل حبي وتركني من أجلها.

بدا وليد محرجاً فعرفني بها وبابنة أخيه. نظرتُ لها بتحدٍ فطالما تمنيت أن أراها وأتعرف عليها. مددتُ يدي لها فصافحتني بامتعاض. أمسكتُ بذراع وليد ودعوته للجلوس في أحد المقاهي فلدي الكثير لأقوله له. جلسنا في أحد المقاهي الأنيقة والمكشوفة على الساحة، ولم تحاول شمس

إخفاء انزعاجها مني فراحت تتنهد وتلوي فمها. لا أعرف إذا ما عرفت حقيقة مشاعري نحو زوجها ولهذا هي مستاءة، وربما أخبرها وليد عني. جاء النادل يسألنا عما نود شربه، فطلبت كل من شمس وهبة ما تريدان وقلت لوليد بابتسامة: أنت ستشرب عصير الفواكه بكل تأكيد .. عصيرك المفضل. ضحك ولمعت عيناه فجأة، فرمقتني شمس بنظرات حارقة. تجاهلتها ورحتُ أتحدث مع وليد غير آبهة لها. سألته:

- لك أسبوع هنا وأنا لا أعرف.

أخبرني بأنه يأتي إلى لبنان باستمرار في زيارات قصيرة لرؤية أمه، وفي الصيف يقضي إجازته السنوية. ابتسمتُ وقلت: ولم تفكر برؤيتي ! أحس بالحرج ولم يجد ما يقوله فالتزم الصمت. أخبرته بأني عدتُ إلى لبنان منذ عدة أشهر، فسألني مستغربا: ألم ترجعي منذ ذلك الوقت؟

حكيتُ له عن سفري الثاني إلى ميامي لأكمل دراستي وأنا الآن أحمل شهادة الدكتوراه. أشعلتُ سيجارة أخذت منها نفساً أمام نظرات شمس وهبه، وأردفتُ: ميامي بدت قبيحة ومملة بدونك. هنأني مطرياً نجاحي، وسألته عن مكان إقامته فأخبرني بأنه يقيم في أوتيل الرويال بارك في عين سعادة. بدأت شمس تتأفف وأحسستُ بانزعاجها من وجودي، فتعمدتُ إغاظتها أكثر بمحاولة لفت انتباهه لمظهري الجديد، قصة شعري والحمية التي أفقدتني الامتلاء الذي يحبه. ابتسم مرتبكاً وقال بأنه لم يلحظ ذلك، عندها طلبت منه شمس

العودة إلى الأوتيل لشعورها بالتعب. هز رأسه موافقاً لكني لم أبالِ بها وبغيرتها فدعوتهم على العشاء الليلة في مطعم إيطالي على شاطئ جونية. نهض وصافحني بينما ابتعدت زوجته وابنة أخيه بسرعة. أعطيته رقم هاتفي وأعطاني رقمه، وأكدت عليه لقاءنا الليلة. فأومأ برأسه مبتسماً: إذا الله أراد.

أطفأتُ السيجارة وأنا أشعر بأن الدنيا بكل سعادتها وجنونها وملذاتها ومغرياتها تطوف حولي، وقلبي يشعر بسعادة لم يعشها قبلاً. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقود سيارتي بسرعة ذاهبة لفدوى في شقتها. قطعتُ إشارات المرور وتجاوزت السرعة المحددة. دققتُ باب شقتها بقوة، وعانقتها ما أن فتحت لي. أخبرتها بأني التقيت بوليد في وسط بيروت. لم تصدقني بادئ الأمر، فأقسمت لها بالله وبالقديسين. أخبرتها بكل ما حصل بالتفصيل، لكنها أحبطتني عندما قالت:

- ألم تفقدي الأمل .. كنت معه في ميامي بدون فائدة .. ما الذي تريدينه منه وهو مع زوجته؟
- مازلت أحبه.
- بلا أمل .. لا تخوضي الحرب مرة ثانية.

***

لقائي به، أعاد لروحي ربيعها.

وصلتُ إلى جونية، العبقة بسحر التراث اللبناني العريق في هندستها المعمارية وسوقها القديم، والمواكبة للحداثة في طرقاتها الواسعة وخدماتها السياحية العديدة، والساحرة بخليجها وشاطئها وجبالها المحيطة حيث ينتصب تمثال السيدة العذراء على جبل حريصا بشموخ. أوقفتُ سيارتي قبالة المطعم القريب من الشاطئ والذي اكتشفته في إحدى الليالي التي كنت أتجول فيها برفقة أغنيات الحب واللوعة في الإذاعة.

جلستُ إلى إحدى الطاولات المطلة على البحر أنتظره وأنا أفكر بنفسي. ها أنا أسلك الطريق نفسها مجدداً، وأنا مغمضة العينين وتائهة. أمشي وراء قلبي الذي لم يسقط حكم وليد عليه، ولم تنجح الانتفاضة ولا العصيان. كأنني لم أبكِ بسببه، ولم أفكر بالانتحار بسبب اليأس الذي تركه في روحي، وكأنه لم يجرحني يوماً وبحبي له يذلني. كذبتُ على نفسي عندما اعتقدت بأني تجاوزته، وبأن الضربة التي أحدثها في قلبي قوتني بدلاً من أن تقتلني. لا أدري إذا كان يتذكر ما كان بيننا، وكيف كان سيتصرف لو رآني قبل أن أراه، هل سيتجاهلني؟. أمازال حائراً في مشاعره وينكر الحب الذي خُلق في قلبي مُصراً على إبقاء علاقتنا محدودة بحدود الصداقة. كم فرحتُ عندما رأيته مرة أخرى والتقت عيناي بعينيه اللتين صليتُ كثيراً لكي أراهما.

جاء النادل يسألني ما أريد فأخبرته بأني أنتظر بعض الأصدقاء، وطلبتُ فنجان قهوة سادة. ارتشفتها وتمنيتُ أن يرجع بي الزمن ثلاث سنوات إلى الوراء، عندما كنت معه ولا يهمني اللوم والعتاب، وأراه بقربي يحيطني بنظرات الحب والغيرة ومشاعره المجهولة التي لم أكتشفها بعد. التفتُ لساعة يدي، خفتُ ألاّ يأتِ، فقد يكون طوى صفحتي ولا يريد فتحها مجدداً. ربما تورط برؤيتي وقبل دعوتي محرجاً عندما ركضت نحوه كالخوتة، وربما مازال متمسكاً برأيه الأخير بأنه تسرع في انخراطه في علاقتنا الغريبة، وماذا لو منعته شمس من تلبية الدعوة؟ فهي لم تخفِ استياءها مني.

شربتُ رشفة الماء عندما أطل وحده، يبحث عني بعينيه وبكل جاذبيته وعنفوانه. أشرتُ إليه فجاء ناحيتي. أحاطني بذراعه وطبع على خدي قبلة، فبادرته بالسؤال عن زوجته وابنة أخيه واعتذر عن عدم قدومهما مدعياً أن شمس متوعكة وهبه فضلت البقاء معها. ابتسمت عيناه ونظرة شوق تلوح بهما، فاستسلمت عيناي العاشقتان أمامه ورفع قلبي راية حبه من جديد. سألني عن السنوات الماضية وماذا فعلت فيها، فتنهدتُ وأخبرته عن عودتي. كنت في حالة نفسية سيئة، حزينة ومنكسرة. فكرتُ بالانتحار عند صخرة الروشة من شدة اليأس، ومنعني من ذلك كثير من الخوف وقليل من الإيمان.

شعرتُ بأن كلامي معه عن تلك المرحلة أشعرني بالضعف، وعاودني الألم نفسه والحزن نفسه. بقي صامتاً يتأملني بنظراته التي تسحرني وتخدرني فأكون أمامه طفلة مطيعة وهادئة. أخرجتُ من حقيبتي سيجارة لأهرب من عينيه، ورحتُ أنفث الدخان وأنا أنظر إلى البحر من وراء الزجاج وأغالب عينيّ حتى لا تضعفا أكثر. اعترفتُ له بجبني، فما أن رأيت وجه أمي حتى تلاشت فكرة الانتحار من رأسي وطلبتُ من الرب المغفرة. ارتشفتُ القليل من الماء قبل أن أقول له: صليتُ كثيراً كي أراك وها أنت أمامي. سألني:

- ومنذ متى تدخنين؟

بلعتُ ريقي وأخذت نفساً من السيجارة وأجبته: منذ أن عُدت من ميامي وأنا ميتة في ذمة الحب .. عم فش خلقي فيها.

مد يده وأخذ السيجارة من بين أصابعي، أطفأها وتفاديتُ النظر لعينيه وهو يأخذ عليَّ وعداً بأن أتوقف عن التدخين. أمسك بيدي وهو يسألني السماح له بفتح حقيبتي. تخلص من علبة السجائر والولاعة وقال لي مبتسماً: التدخين لا يليق بك. ابتسمتُ وسادت لحظات من الصمت وكأننا لم نجد ما نقوله لبعضنا. تنهدتُ بعمق وأنا أشتت فكري عنه بمراقبة الناس، فباغتني سؤاله:

- ميراي .. ألم تزوجي؟

أجبته وعيناي في عينيه:

- لا أتزوج لمجرد الزواج .. وأنت تعرف.

ذكرني بما قلته له في اليوم الذي غادر عائداً إلى بلده، وغمرني بنظرات عميقة أنستني نفسي وجعلتني أفكر بالارتماء بين ذراعيه وإخباره بما عانيته في غيابه، وبأفكاري وهواجسي وما يشغلني، لكني لم أجد ذراعيه، ولم يفتحهما ليلملمني كالسابق. ابتسم فجأة وسألني عن الصور التي اختفت من ألبومه فأخبرته بما حدث يومها. ضحك وأكمل حديثه يسألني عن إلياس وعائلته وعن صديقتيَّ فأخبرته بأن فدوى تنتظر طفلاً، ولينا تزوجت منذ مدة قصيرة.

عاد الصمت ليقف بيننا من جديد فقطعته بسرعة قبل أن يستبد بنا. طلبتُ منه أن يحدثني عن نفسه، فأجابني ضاحكاً ومراوغاً في الوقت ذاته: أنا جائع. اعتذرتُ منه فلقد سرقنا الحكي. أكلنا البيتزا مع المقبلات التي ساهمت باسترجاع الكثير من ذكرياتنا في ميامي. أخبرته عن عملي في الجامعة، وأخبرني هو عن عمله. بقينا نتحدث ولم يذكر لي شيئا عن حياته الخاصة، حتى أشارت الساعة إلى الحادية عشرة. أردتُ أن أدفع كوني صاحبة الدعوة فرفض ودفع هو، ثم خرجنا معاً. تمشينا نحو مواقف السيارات ونسمات هواء باردة تلاطفنا. اقتربتُ منه وأمسكتُ بيده فتورد وجهه وشعت عيناه ببريق ذكرني بتلك الأيام. شكرني على الدعوة:

- العشاء لذيذ .. استمتعت برفقتك.
- صحتين على قلبك.

طلبتُ منه أن يوصل تحياتي لشمس وقلت له بابتسامة: سنرى بعضنا بالتأكيد. ازداد اقتراباً مني ووعدني باللقاء.

***

ماذا أفعل إذا كان قلبي لا يحلم بغيره.

لم أنم طوال الليل، وظللت أفكر بلقائي به، وأستعيد نظراته وكلماته، وأحاول أن أفهم من غموضه شيئا. سامحته بسرعة على آثار الدمار الذي خلفها في قلبي ولم أطالبه بتعويضات. أشعر بأن هواه يطيرني من جديد ويشعل فيّ سعادة الحب، لكن سعادتي مهزوزة وقلقة لعدم ثقتي بقلبه. ثلاث سنوات مرت وأنا كما أنا برغم ما فعله بي. آه كم أتمنى أن تنام عيناي اللتان انشغلتا به منذ رأيته. رضيتُ بالعذاب وبحبه وتحملت الذنب وحدي وها هو أمامي مرة أخرى فماذا أريد منه الآن. نهضتُ من سريري بعد ساعات من النوم واليقظة وببالي تلوح فكرة الذهاب للقائه. سأذهب لأراه فخسارتي معركة لا تعني خسارتي الحرب كلها. ترددتُ قليلاً ثم حسمتُ أمري بالذهاب، فالتاريخ يصنع بقرارات سريعة. ارتديتُ ملابسي، تبرجت وصففت شعري ونزلت لأمي التي وجدتها تقرأ الجريدة وتستمع لبرنامج إذاعي في الوقت ذاته. راحت تخبرني بسجال السياسيين الأخير حول موضوع الانتخابات المقبلة فأجبتها بلا اهتمام:

ينحرقوا كلن .. زهقونا. نعم، سئمنا منهم وخطيئتنا كشعب أننا أعدنا أمراء الحرب لواجهة السياسة بدون أن نحاسبهم على ما اقترفوه بحق الوطن. كما أنني لن أصوّت لأحد منهم، فهم زمرة من الوصوليين والفاسدين ومحترفي الكذب.

سألتني أمي عن وجهتي ولقد استيقظت تواً من النوم. تمنيتُ أن أخبرها بما يجول في قلبي لكني لم أفعل، فأنا أعرف بأنها لن تقف بصف قلبي. زممتُ شفتيّ وهي تعاود سؤالي بقلق: شو بكي ملبّكة؟. تلافيتُ النظر لعينيها، وأنا أخبرها بأني التقيت أمس بوليد صدفة في وسط بيروت ومن ثم تناولنا العشاء معاً. نقلتُ لها الخبر بطريقة عادية، لكنها تعرف بأن الموضوع بالنسبة لقلبي ليس عادياً أبداً. لم تقل شيئاً وظلت صامتة لتحثني على الكلام بنظراتها المختلطة بالانفعال والقلق والدهشة. يبدو بأنها ظننتني ملكت قراري بنسيانه، فلم أعرف كيف أجيبها عندما سألتني: شو بدك منو؟

لم أقل لها شيئاً واستأذنتها خارجة. قدتُ سيارتي وقلبي يتجه نحو المتن في جبل لبنان، وعقلي يفكر بما قالته أمي، ماذا أريد منه الآن؟ سأدخل عرين الأسد متعللة بالاطمئنان على صحة شمس. لا يجب أن يكون لقاؤنا عابراً والسلام، وها أنا أعلن الحرب من جديد. وصلتُ إلى عين سعادة وسألتُ موظفة الاستقبال في الأوتيل عن غرفته فدلتني عليها. شعرتُ بالخوف وأنا أطرق باب الغرفة. فتحت لي شمس التي صدمتها رؤيتي فتغيرت سحنتها وكأنها رأت

شبحاً. مددتُ لها يدي فصافحتني بوجل، سألتها: كيف حالك الآن؟.. أخبرني وليد بأنك متوعكة لذا جئت أطمئن عليك. تنهدت بوقاحة ودعتني للدخول على مضض، وأشارت لي بالجلوس وانصرفت. وجدتُ ابنة أخيه جالسة تشاهد التلفزيون، ألقيتُ عليها التحية فردت مبتسمة. جلستُ على الأريكة وخلال دقيقة عادت شمس، قدمت لي العصير وتركتني من جديد.

دقائق وجاء وليد مبتسماً ومرحباً، سلم عليّ وجلس أمامي يسأل عني وعن والديّ وهبه تراقبنا بصمت. تحدثنا عن أمور غير مهمة، الطقس والموسم السياحي وما هي إلا لحظات حتى جاءت شمس تمسك بحقيبة يدها، ولم تزح عينيها عن وليد وعن ساعة يدها، فدعاني بحرج لتناول الغذاء معهم في أحد المطاعم، كما أنها فرصة لأتعرف على عائلته. اعتذرتُ عن الذهاب معه لكنه أصر على دعوتي، ولا أدري إذا كانت محبة بصحبتي أو ليلقن زوجته درساً لتصرفها الغير مهذب معي، وأنا بدوري قبلتُ الدعوة نكاية بها. لم أكن فرحة فقط بل الدنيا لا تتسع لسعادتي، فهاهو وليد يعيدني لحياته من جديد ولو برسم صديقة.

هل قدري أن أبقى صديقته مهما اختلفت الظروف؟

وصلنا إلى وسط بيروت ووجدنا أمه مع زوجها وابنتيها الشابتين في انتظارنا في أحد المطاعم الراقية. قدمني وليد

لعائلته بجملة واحدة، ميراي أسمر مهندسة وصديقة من أيام ميامي. رحبت أمه بي بحفاوة، هي سيدة جميلة وراقية وسليلة عائلة أرستقراطية. عرفت من وليد حكايتها. كيف عاشت قصة حب عاصفة في صباها مع زوجها الحالي الدكتور مروان وانتهت بسفره إلى الخارج، فعاشت حالة إحباط حاولت تبديدها بالسّهر وتعرفت على والد وليد في تلك الفترة. أرادت دخول معترك مسابقات الجمال فاصطدمت برفض والديها، فأرادت أن تدخل سلك الرهبنة. تركت المنزل سرا واختبأت في أحد الأديرة لعدة أيام. عادت لوالديها بمساعدة منصور وهي بحالة نفسية سيئة، وفاجأتهما بقرار الزواج به انتقاماً من مروان ومن الحياة بأكملها، وانفصلت عنه ووليد في السابعة من عمره. عندما عاد حبيبها من فرنسا تزوجت به وأنجبت ابنتيها الصبيتين روز، التي تواصل دراستها العليا وتعمل في إحدى الشركات، ورولا التي مازلت في صفوف الجامعة.

جلستُ قبالة وليد لأراقب عينيه ونظراته فربما أفهم منهما شيئاً. أبدى اهتماماً بي بلباقة أزعجت شمس على ما يبدو، فظلت ساكتة تنطق بالقليل ولا تبدي اهتماماً بشيء. تنوعت المأكولات لكن المازة اللبنانية تسيدت المائدة والأحاديث والضحكات جعلت الأكل أطيب. كانت السيطرة عليه همي فأخرجت له القلادة الذهبية التي تتدلى في عنقي علّه يقدر احتفاظي بها ويعرف بأني لم أتغير، مازلت أحبه بالقدر نفسه وبالجنون نفسه وبالولع نفسه. أفرحتني نظراته،

بدت شغوفة و بها الكثير من الدفء، وجعلت قلبي يلعب ويتمرجح. قرأتُ في عينيه نظرات حب مزينة بالإعجاب ومكللة بالشغف. نظراته أخذتني إلى مكان آخر، وأشعرتني بشعور آخر. أحسستُ بأني في قمة كل شيء. قمة الثمل وقمة الحب وقمة الجنون، وسرعان ما بدأت أتهاوى وشمس تمسك بذراعه وتطلب منه أن يطلب لها فنجان قهوة، فطلب كل منا مشروبه المفضل.

طرحت السّت مادلين فكرة الذهاب إلى الجبل نهاية الأسبوع، وفرحتُ عندما وجهت الدعوة لي ولعائلتي بغرض التعارف. رحبتُ بالفكرة وأخبرتها بأننا نملك منزلاً في صوفر ونرحب باستضافتهم مما أزعج شمس، فلم تخفِ ضيقها مني ولم تبذل جهداً لذلك. لم تكن تشاركنا حديثنا، وتحاول أخذ رولا في أحاديث جانبية طوال الوقت.

***

عدتُ لمنزلي واستوقفتني أمي تسألني عنه، يبدو بأنها قبضت القصة جدا. حضرتُ ركوة القهوة وجلسنا معاً. سألتني عن وليد فحدثتها عنه وعن عائلته بكل ما أعرفه. لم تقل أمي شيئاً وبعينيها كلام كثير. مساءً جاءت ساندرا فأخبرتها بلقائي به، لم تبدِ اهتماماً لكنها ألقت عليّ جملة واحد: انتبهي ع حالك يا معترة .. لا أريد أن أراك ضعيفة.

لم تغمض عيناي ليلتها وأنا أفكر به وأسأل نفسي ماذا أريد؟ وما الذي أطمح له في حياتي؟

أنا الآن خائفة، ولا أدري لماذا يرتبط الحب بالخوف.

أخاف على قلبي أن ينكسر مرة أخرى، فهو مغرور ومتهور لا أستطيع إقناعه بالأخطار المحتملة من حب وليد ومما قد يصيبه إذا انكسر مرة أخرى. مازال وليد ملكاً على قلبي ولم أستطع إسقاط حكمه. أحبه وهذا ذنبي، أتقلب في ليلي وأتحلى العذاب الذي أعيشه وهو بعيد عني.

ماذا يفعل وليد في هذا الليل؟

ربما هو ملتصق بشمس، يغازلها، أو يقبلها، أو ... كفى، حاولتُ التفكير بإيجابية فقد يكون مشغول بي. رنّ هاتفي، ورجف قلبي وأنا أرى اسمه على الشاشة. أجبته فجاءني صوته:

- أمازلت مستيقظة؟
- ليلي سهر.
- أردت أن أسمع صوتك قبل أن أنام.
- ....
- تصبحين على خير.

أنهى حديثه بسرعة ونمت بعدها حتى ظهر اليوم التالي، وكأن صوته حبة منومة انتظرتها طويلاً. نامت عيناي، وظل قلبي صاحياً سعيداً بعودته. سامحه بسهولة وكأنه لم يتألم ولم يقضِ الليالي يبكي حبه.

***

بقيتُ أياماً وقلبي على كف عفريت، و روحي في حالة ترقب. أفكر به بشكل مستمر، وأصلي كثيراً وأضيء الشموع وأتشفع بالقديسين. أنتظر اتصاله وأخلق له الأعذار عندما يتأخر فربما هو مشغول، وربما تكون شمس جاثمة على قلبه فلا يجد فسحة للحديث معي، وربما هو لا يفكر بي ولقاءاتنا صدفة ومجاملات.

أكان يسايرني فقط؟ لكن نظرات الحب في عينيه لم تكن مسايرة.

فاجأني وجهي في مرآة السيارة، متجهمة وقلقة وشاردة، تعصف بقلبي رياح الهوى في كل أنحاء بيروت. وصلتُ إلى الروشة، ترجلت من سيارتي ووقفت أمام صخرتها. أخبرتها بما جرى لي، وبحالة قلبي المعقدة وتصرفاته التي لا تصب في مصلحتي، فوليد يتملك روحي وعقلي ومشاعري. اتصلت بي ساندرا تسألني: وينك؟. أخبرتها بأني أشم شوّية هوا، فدعتني لزيارتها وذهبت فوراً. عانقتها ما أن

فتحت لي باب شقتها، وحدثتها عن وليد. طلبتُ منها أن تصلي من أجلي فأنا حقاً أتعذب، فغضبت مني:

- لكنه رجل متزوج.
- وماذا عن قلبي ومشاعري .. لقد قرأتُ الحب في عينيه.

أمسكت بيدي وأردفت برجاء: لا تتصرفي ضد مصالحك من أجل رجل متزوج ربما لديه فائض من العاطفة أو رغبة بمغامرة أو نزوة .. وتذكري بأن الحب أن تقولي لا وأنت تريدين أن تقولي نعم.

رن هاتفي وجاءني اتصاله يسألني عن مشوارنا إلى الجبل نهاية الأسبوع. سمعت صراخ شمس ولم أفهم ما تقوله. يبدو بأنها لا تريد أن تستسلم، عليها أن تتعود وجودي في حياة وليد وقربي منه، عرضتُ عليه اصطحابهم بسيارتي وأفرحتني موافقته. طلبت من ساندرا أن تذهب معنا لتتعرف عليه لكنها اعتذرت لارتباطها بحضور حفل زفاف.

نسقتُ مع والديّ الذين سبقاني إلى صوفر لألحق بهم مع وليد وعائلته. مررتُ به صباح السبت، ووجدته جالساً بالقرب من شمس وهبة في بهو الفندق، وبسرعة لاحظت التوتر بادياً على قسماتها، ولابد أنها متضايقة مني. مررنا بعائلة وليد في برمانا ثم سلكنا طريقنا نحو الجبل وهو بجانبي نستمع للإذاعة و نتحدث. ظلت شمس ساكتة، حاولتُ إشراكها في الحديث لكنها كانت تجيب باقتضاب شديد

وتسكت. وصلنا صوفر التي تلفها السكينة، ووحده الهواء يغني فيها مغازلاً أشجار الأرز والصنوبر و البلوط والدلب. أوقفت السيارة أمام عتبة بيتنا المجاور لبيوت معلقة على الجبل ومطلة بغرور على الأودية. الجو جميل ونسمات الهواء المنعشة تداعب الجميع، وعلامات الارتياح بادية على وجوههم سوى شمس. جلسنا نشرب القهوة ونتحدث مستمتعين بوجودنا معاً. لاحظتُ أمي وهي تتقرب من وليد وتنصت لأحاديثه، وتسأله عن عمله وعن آرائه في بعض الموضوعات العامة.

بعد الظهر خرجنا لتناول الغداء في المطعم القريب. ذهبنا مشياً على الأقدام وأصوات الطيور تضيف سحراً على المكان والباعة على جانبي الطريق يبيعون العسل الطبيعي وأنواع المربيات الطازجة والكبيس. لم أستطع الاقتراب من وليد وزوجته تمسك بذراعه بوجهها المتجهم. لا بد أنها تتعمد إغاظتي وتريد أن تثبت لي أنها امرأته الشرعية. ظللتُ أراقبهما من خلف نظارتي الشمسية، وهو يمازحها ويهمس لها. أيتعمد ذلك أيضاً ليذكرني بأنه يحبها هي؟ واختارها وعاد لها هي؟ وأنا سأظل رفيقة مهما ابتعدت أو اقتربت.

جلسا جنباً إلى جنب فقلتُ لشمس بابتسامة: يبدو بأنك منزعجة أو المكان لم يعجبك، فمطت شفتيها وسكتت ممتعضة وأجاب وليد نيابة عنها بأنها تشعر بالغثيان من

ركوب السيارة. أحسستُ بأني بحاجة لسيجارة أنفخ فيها غضبي وغيرتي لكني تمالكت نفسي. تناولنا غذاءنا والأحاديث الجماعية سائدة، ولم أستطع أن أختلي بوليد للحظة وأسأل قلبه عن أحواله.

عدنا إلى المنزل فانزوت شمس مع هبة في غرفتهما، ووليد مع والدي وزوج أمه يلعبون الشطرنج في البرندا، وأنا مع أمي والست مادلين وابنتيها في الصالة نتحدث في مواضيع عامة وسرعان ما انضم الجميع لنا. تعمدتُ الجلوس بجانب شمس فعليّ أن أكون دبلوماسية معها، ولا يجب أن تشعر بالخطر من وجودي. بادرتها بالهجوم وسألتها عن سبب انزعاجها الذي لم يخف على أحد، وتمنيتُ ألاّ تكون منزعجة من صداقتي مع وليد. رمقتني بنظرة شك وقالت: ولماذا أتضايق منك؟ أنهيت حديثي معها بعد أن أخبرتها إني مرتبطة بشخص وسنتزوج بعد عودته من أستراليا.

لم ينم قلبي، وما أصعب السهر!

لم أنم تلك الليلة ووليد هنا قريب مني وبعيد، يتصرف معي بنفس طريقته القديمة. بعيد عني تارة لا يفكر بي ولا يقرأ الشوق المشتعل في عيني، وقريب مني تارة أخرى ينظر لي بعينين ملؤهما الحب. يحدثني بأريحية ويده تلامس يدي خلسة عن عيون شمس. نام الجميع وعيناي لم تغمضا،

فوضعتُ على كتفي شالاً وخرجت لأقف على البرندا أراقب الكون النائم وأنا ساهرة برفقة قلبي المشلوح. شعرتُ بالبرد وأغمضت عينيّ للحظة أفكر بقلبي الذي لم يتعلم شيئا من ليالي السهر الماضية، ولم يتعلم من أخطائه فهاهو يعيد وليد إليه برسم ملك، فها أنا أفتح له قلبي مرة أخرى ليفعل به ما يريد. مازال يحبه بالجنون نفسه والتهور نفسه والصخب نفسه.

ليت وليد يأتي في هذا الليل ويغمرني بحنانه، ويعيد لي أحلامي الذي تكسرت.

سرت بجسمي قشعريرة، وتبادر إلى سمعي خطوات بطيئة مترددة ينقلها صفير هواء الجبل، كما نقل لي صوته: بعدك سهرانة؟. زممتُ شفتي وقلبي يرفرف مكانه فمنذ فراقنا وأنا لا أنام بسهولة وقلبي لا يطير. اقترب مني وعيناي وحدهما من يتكلم، فالصمت أحياناً يكون أبلغ في إيصال المشاعر، وعلّ صمتي يخبره بأني ما زلت أحبه. استند على سور البرندا الخشبي وقال وعيناه ثابتتان على أشجار الصنوبر الباسقة بأن النوم عصي عليه. أخذ نفساً عميقاً والتفت إليّ مبتسماً:

- ع بالي فنجان قهوة.
- هلّق .. الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

هز رأسه وسألني بلطف: هل ستبخلين عليّ؟

- ولو .. تكرّم عينك.

ذهبتُ إلى المطبخ لأعد القهوة بنكهة الذكريات والولع، وعندما عدت وجدته جالساً على مقعد الخيزران يتأمل الكون بسكون وكأنه جزء منه. ابتسم لي ببهائه وسحره حالما أحس بوجودي. جلستُ على المقعد الآخر. ناولته فنجانه وأخذت فنجاني، وشاركته لذة شرب القهوة في هذا الوقت المتأخر. امتدح قهوتي والابتسامة مرتسمة على وجهه: لم أذق أطيب منها في حياتي .. وفي هذا البيت أشعر بأني في زمن آخر.

هززتُ كتفي بابتسامة، ثم أخبرته قصة هذا البيت الذي ولدت أمي فيه وتربت، وعلى شرفته التقت بأبي لأول مرة. جاء من جبيل ليصطاف وسكن بالبيت المجاور، ونشأت بينهما قصة حب بدون أن يعرف أحدهما اسم الآخر أو يتحدث معه. انتهت الصيفية ورحل أبي، لكنه عاد بعد شهر ليطلب يدها فتركت هذا البيت ورحلت معه. غير التهجير خارطة هذه البلدة الغافية في الجبل، وبقي البيت وحده يقاوم الدمار والجنون، وبعد الحرب تملكته أمي وأعادت ترميمه كرمال ذكرياتها.

أمسك بيدي ودعاني إلى الخلود للنوم، وعيناه تقولان لي بأنه مازال يعيش حالته العاطفية الغريبة، يريد أن يحبني ولا يريد في الوقت ذاته. أتذكر عندما جاء حاملاً الورود لي بعد عدة أشهر على لقائنا. أمسكت بها وعيني تود معانقته. أبديتُ إعجابي بها فهي ورود الحب بكل تأكيد، وضعتها في

مزهرية زجاجية، ثم سألته عن المناسبة، فابتسم وقال ليس بالضرورة أن توجد مناسبة لكي يهدي رجل وروداً لامرأة. ابتسمتُ وقلت له: شكراً، فأمسك بيدي وسألني مستغرباً: لماذا تشكريني؟. أجبته بنفس طريقته، فليس بالضرورة أن يوجد سبب لتقول امرأة لرجل شكراً.

نمتُ ساعات قليلة واستيقظتُ مبكراً لأساعد ماما في إعداد الترويقة. قطعتُ الخيار والبندورة الجبلية، وأمي تجهز أطباق اللّبنة والزيتون والجبنة والمربى والكشك، وأنا أنقلها إلى طاولة السفرة. أمسكتُ بربطة الخبز وهممت بالخروج عندما سألتني أمي:

- هل أنت سعيدة؟
- ...
- عتلانة همّك.

طلبتُ منها أن تصلي من أجلي، ثم غادرنا قبل الظهر. طلب مني وليد أن يقود السيارة فجلستُ بجانبه وشمس في الخلف ساكتة، تتأفف وتتنهد و عينيها تراقب سكناتي وحركاتي طوال الطريق. شغلتُ الراديو على إحدى المحطات الإذاعية وأنا ووليد نتبادل الكلام والذكريات. ذكرته بتحايلي عليه لنسافر في العطلات وكان يرفض. تنهد وقال مؤكداً على كلامي:

- لم أخرج من فلوريدا طيلة خمس سنوات .. نذرت نفسي للعمل.

- نظام أمريكاني.

***

ماذا أفعل إذا كان قلبي لا يطيعني؟

مرت عدة أيام دون أن أراه، لكنه ظل يتصل بي كلما سنحت له الفرصة فلابد أنه يخفي ذلك عن زوجته، وأنا أتصل به كلما اشتقت لسماع صوته. أحياناً لا يرد عليّ حينها، لكنه يعاود الاتصال بي لاحقاً. مكالماته قصيرة لا تتعدى الدقائق و أيامي قائمة عليها وليته يعرف!

جلستُ مع أمي وأختي نشرب الركوة الثانية من القهوة ونتحدث عندما اتصل يطلب ملاقاتي في وسط بيروت في المقهى ذاته. طرتُ من الفرح، لكن نظرات أمي أرعبتني، قالت: خائفة عليك .. روقي. لم أقل لها شيئاً لأني ببساطة لا أعرف ما أقوله، فجاء رد ساندرا: خليها .. إنشاء الله تفوت بالحيط. بدلتُ ملابسي بسرعة وذهبتُ لملاقاته، فهو يتحكم بي، ويجدني طوع يديه متى أرادني ويبعدني وقتما يريد. لا يهم، أنا أحبه وبيمون على قلبي. وجدته ينتظرني في المقهى في وسط بيروت، وعيناه المشتاقتان فيهما بريق ساطع. وشوشني بابتسامة: اشتقتلك كتير. جلستُ بجانبه وشعرت بدقات قلبي وقد فرطت عن مسارها الطبيعي عندما أمسك بيدي وقال:

- أنا دائم التفكير فيك.
- ...

طلب لنا عصير الفواكه وساد صمت أسعدني، فنظراته أخذتني إلى آخر الدنيا، وإحساسي يقول بأنه جاء ومعه العيد والفرح والهدايا والحب. تنهد وهو يقول: لا أعرف ماذا يحدث لي .. قلبي يخرج عن طوعي. شربتُ رشفة من العصير وطلبتُ من قلبي أن يهدأ فهاهو قد جاء ولهفته لرؤيتي جلية. طمأنته فلم يذهب صبره سدى ولم تذهب دموعي مع الريح. قطع وليد مناجاتي وسألني: لماذا أنت صامتة؟، ابتسمتُ بصمت فعاود القول:

- قولي شيئاً .. أي شيء .. أحب سماع صوتك.

رنّ هاتفي الخلوي، وما أن رأيتُ اسم لينا حتى تذكرت موعدي مع فدوى لزيارتها. طلبتُ منه أن يذهب بصحبتي فهما بانتظاري، قلتُ له بدلال: أريدهم أن تريانى بصحبتك .. ستفاجئهماً. وافق شرط ألاّ يتأخر فلديه العديد من الأعمال التي يريد قضاءها. شربنا فنجان قهوة مع فدوى ولينا بسرعة، وغلبت على أحاديثنا المجاملات وتذكر أيامنا في ميامي. بعدها ذهبنا لمكتب الطيران ليؤكد موعد عودته إلى السعودية. طلبتُ منه البقاء في لبنان مدة أطول. لا أريده أن يغيب عني مجدداً، ولا أن أفقده وأرجع لنفس نقطة الضياع من جديد. أمسكتُ بيده وسألته: هل سأراك قبل أن تسافر؟.

ابتسم وبدا غير متأكدٍ، فعرضتُ عليه إيصاله إلى المطار يوم سفره، لكنه قال:

- لا أريد أن أزعجك.
- لن أنزعج .. لكن شمس لا تطيق رؤيتي .. اضطررت لإخبارها بأني مرتبطة بشاب في المهجر وسنتزوج عندما يعود علها تكف عن مضايقتي.

طبع قبلة على جبيني وطمأنني: سنبقى على اتصال .. سأشتاق لك كثيراً. سألته إذا ما كنت سأراه مرة أخرى، فلم يقل شيئاً لكنه لملمني بذراعيه، وشعرتُ بدفء أنفاسه ودقات قلبه، ويده تربت على ظهري بحنان. أخرجتُ نفسي من بين ذراعيه ونظراته تطلب مني البقاء. ودعته وركبتُ سيارتي. بقيتُ ألفّ في شوارع بيروت وأحاول أن أقنع نفسي بأن المكان لن يكون عائقا بيننا. الآن الوضع مختلف، لدي أمل. كرر بأنه سيشتاق لي وبدا اهتمامه بي مختلفاً، كان رقيقاً ونظراته نحوي كأنثى بدت أكثر عمقاً. لكن هذه الحالة الغامضة لا ترضيني، لن أبقى في حالة معلقة بين الحب والصداقة، عليه أن يكون صريحاً مع قلبي. يجب أن أعرف كيف يقرأني، أتعبتني رؤيته لي رفيقة، وسئمت حياديته.

***

صفح عنه قلبي، أم إني لا أتعلم من أخطائي؟

سهرتُ برفقة الحيرة وظنوني، وأشرقت عليّ الشمس وأنا أفكر به. لم أره منذ ذلك اليوم مكتفية بسماع صوته لدقائق مسروقة. غفوتُ لعدة ساعات بعد أن أرسل لي رسالة قصيرة على هاتفي عندما ركب الطائرة المتجهة إلى الخُبر. استيقظتُ في الظهيرة على صوت هاتفي. أجبتُ ساندرا التي طلبت مني النهوض للذهاب معها إلى المطار لاستقبال أختي نادين القادمة من دبي بعد الظهر. أعددتُ لي فنجان قهوة، شربته بلهفة و مددته لأمي. طلبتُ منها أن تقرأه لي، علها تخبرني شيئاً فهي تحب أن تتسلى بالقراءة مع صديقاتها في الصبحيات. قالت وهي تحاول قراءة عينيّ بدلاً من الفنجان: أنا خائفة عليك.

آه، لماذا الكل خائف عليّ، أمي وأختي وصديقتاي، وأنا أيضاً خائفة على نفسي منه. جاء أبي من المستشفى وتناولتُ غدائي معهما بسرعة وخرجت. مررتُ بساندرا وذهبنا معاً إلى المطار. شردتُ بأفكاري للحظات ونحن نراقب القادمين ونبحث عن نادين بينهم. لكزتني ساندرا وسألتني عنه:
- شو أخبار حبيب القلب؟
نظرت لها وأنا أحاول فهم مغزى سؤالها، فعادت وقالت: لوين رايحة؟

شعرتُ بالهشاشة وأنا أقول لها: لا أعرف. أنا صادقة، لا أعرف مصير علاقتي الغريبة معه، وأشعر بأن حياتي كلها على كف عفريت. عدتُ لجنوني وهواجسي وأحلامي، أفكر

به وأتخيل أموراً أتمناها متناسية سوابقه. كنا معاً في ميامي ولم أظفر إلا بهزائمي. الآن الوضع مختلف، زوجته معه وتبدو علاقتهما جيدة، وفي الوقت ذاته يسرق الدقائق ليتصل بي ويقول لي أنه مشغول بي. عيناه تغازلني، ونظراته تأخذني لآخر الدنيا وتعيدني. مازال قلبي ينتظر قلبه ليتكئ عليه، وعيناي تنتظران العيد الآتي من عينيه، وأنا بينهما أعيش حالة اللااستقرار والتأهب، حالة هدنة بين الحرب والسلم.

بكيتُ وأنا أعانق نادين. لم أرها منذ سنوات، جاءت لوحدها وبقي زوجها وأولادها في دبي. أسفت لأنها جاءت في الأيام الأخيرة لإجازتي فأنا أريد البقاء بصحبتها وقتاً أطول. عدنا لبيتنا، واجتمعنا على العشاء، وقضينا وقتا عائلياً ممتعاً ومن ثم ذهب كل منا لغرفته. ذهبتُ إلى مخدتي وهواجسي وانتظاري وأفكاري وأحلامي. أحسست بأني بحاجة إليه، بحاجة إلى صوته وكلماته وقلبه. أريده أن يحدثني ويطمئنني. ليت الهواء يأخذني إليه خفية، وأغلغل في قلبه وأنسى كل شيء. اتصلت به وقلت له:

- شعرتُ بالحاجة إلى الحديث معك.
- أنا أفكر فيك دائماً .. ربما لا تصدقيني.

أحسستُ بأنه يريد أن يقول لي شيئاً آخر، لكنه ظل ساعة كاملة يتحدث في أمور عديدة ولم يرح قلبي. لا أدري لماذا يفكر كثيراً فيما يريد قوله، وقلبه يكر ويفر معي.

***

أتحتاج كلمة حب لكل هذه المراوغة؟

بدأتُ العمل في الجامعة وكم هو ممل العمل في الصيف فأغلب العمل إداري، تحضير أسماء الطلاب وجداول المحاضرات والمواد الدراسية والمقررات، وتدريس المواد المتاحة دراستها صيفاً. ظللتُ طوال اليوم أفكر به وهاتفي الخلوي بقربي عله يتصل في أي لحظة. لا أدري لماذا أرغب بأن يبادر هو بالاتصال، ربما لأشعر بأهميتي لديه، ولكن الدوام شارف على الانتهاء ولم أسمع صوته. عدتُ إلى البيت واستلقيت على سريري وأنا أفكر به. لماذا لا يتصل، أيتسلى معي في وقت فراغه؟. ربما هو مشغول، أو زوجته جاثمة على أنفاسه. وضعتُ الهاتف بجانبي وتعاقدت مع النوم لكني أفقت حالما رن هاتفي واسمه يظهر أمامي. فأجبته بفرح بدا على صوتي، لكنه كان غاضباً:

- لماذا لم تتصلي بي؟

التزمتُ الصمت، فخففت حدة صوته وأردف يعاتبني: أنا محتاج إليكِ .. أريدك أن تتصلي بي كل ساعة .. تهتمي بي وتدلليني. أغمضتُ عينيّ وأنا أتذكر ما فعله معي سابقاً في ميامي، عندما أخذني إلى السماء السابعة وأسقطني بعد ذلك

في الأرض السابعة. لم أعرف بم أجيبه، فعاد وسألني: ألم أعد أعني لك شيئاً؟

لماذا يلف ويدور معي ومع قلبي؟

لماذا لا يكون مباشراً وصريحاً، لماذا يقول لي كلاما بلاستيكياً. لقد عاد يطلب قربي منه برغم المسافات. أمازال مصرا على إبقائي في مكاني؟، ولا أعرف إذا ما كان يقرأني حبيبة أم صديقة، أينظر لي بحب أم أعجاب أم رغبة. بكيتُ وبكيت كثيراً، اتصلت بي فدوى ولم أجبها، واتصلت ساندرا أيضاً ولم أجبها. ظللتُ وحدي مع ألمي وقلبي الذي كسره وليد وأخشى أن يكسره من جديد.

ماذا يريد مني الآن؟

لم أنم تلك الليلة بسهولة. قرأت كتاباً بلا فائدة، وخرجتُ من غرفتي وشاهدت التلفزيون لبعض الوقت ثم عدت لسريري مرة أخرى ولم ينم قلبي ولم تغفو عيناي. عندما لاح أول خطوط الفجر شعرت بعيني تغلقان وحدهما، لكن سرعان ما نهضت للعمل بكسل ساعدني حمام بارد وفنجان قهوة بالتخفيف عنه. توجهتُ إلى الجامعة وأنهيتُ الأعمال التي لا تحتمل التأجيل واستأذنت من العميد. ذهبتُ إلى جبيل، قاصدة الصلاة والحديث مع راعي الأبرشية.

أشـعلت الشـموع البيضـاء وصـليت، لينيـر الله دربـي ويريحني كما وعد جميع المتعبين والرازحين تحت أثقالهم. بكيتُ وشعرت بسمو روحي، ثم ذهبتُ إلى الخوري لأحدثـه عمـا يخـالجني. قبلـتُ يـده وطلبـتُ منـه الصـلاة لأجلـي. خاطبته:

- أبوّنا .. أحب رجلاً متزوجاً .. وهو مسلم.
- ...
- أنا تائهة .. ومتعبة.

سكت للحظـات، منتظـراً أن تهدأ روحـي، ثم قـال لـي بنبـرة أبويـة حانيـة: كلنـا أولاد رب واحـد .. أخضـعي نفسـك لعمـق غنى الله وحكمته وعلمه فهو وديع ومتواضـع القلـب.. داعـي السـلام والمحبـة والخيـر.. تيهـي فـي نعمـة يسـوع ومحبـة الله وسـر الـروح القـدس .. سـبحي لـه ومجديـه وصـلي كثيـراً وسـتجدين الجـواب أمامـك واضـحاً جليـاً .. اسـألوا تعطـوا واطلبوا تجدوا واقرعوا يفتح لكم.

أغلقتُ باب غرفتي عليّ وأشعلتُ شمعة. صليتُ بخشوع وسألتُ الله الكامن فـي روحـي أن ينير دربـي. استلقيتُ علـى سريري وأغمضـت عينـيّ أحـاول أن أسترخي معتمـدة علـى إيقاعات تنفسية وأفكار وصور أرسمها في خيالي. لا أعـرف إذا ما كنت أحلم بكلمـات وليد أم أننـي مستيقظة وهذه بشـارة الله لي. جاءني صـوته مفعمـاً بالحنـان: ميراي .. أنـا أحبـك .. أنت تغلغلين في روحي .. أحبك منذ رأيتك فـي ميـامي لكنـي لم أكن أعرف ذلك.

لـم أعـرف بـمَ أجيـب كلماتـه المتدفقـة بشـاعريه. نعـم إنهـا البشارة، تمجّد اسم الله، رأيـتُ وأمنـت فطـوبى لمـن أمـن ولـم يرَ. استرسل وليد: رؤيتك مؤخراً أيقظت في قلبي شرارة بقيت مشتعلة طيلة السنوات الماضية .. ربما الزمان والمكان كانـا غيـر مناسـبين .. أمـا الآن فأنـا أحبـك وأريـدك بجـانبي. أخيراً يقول لـي بأنـه يحبنـي، كـم انتظـرتُ هـذا الوعـد، وكـم بكيت وكم سهرت. قلتُ له: أنا لا أحبك .. أنا أعبدك.

***

ما بها المفاجآت تتوالى عليّ؟

خمسة عشر يوماً مضت على سفره، وخمس سنوات وأنـا أنتظـر كلمـة حـب منـه. البارحـة جـاء اعترافـه بالحـب بعـدما انتظرته طويلاً، واليوم أحسُ بتـأثير رهجـة الحـب علـيّ، أنـا أجمـل وأطهـر وأنقـى. السـعادة الحقيقيـة تتغلغـل فـي روحـي ونشـوة الحـب تطيـر بـي فـي سـماء بيـروت. أدرتُ محـرك سيارتي ذاهبة إلى الجامعة وأنا أفكر به، وأتمنـى أن أراه بعد هذا الاعتـراف. كيـف سـنلتقي وكيـف سيضـمني إليـه، ومـاذا سـتقول لـي عينـاه؟. جلسـتُ فـي مكتبـي عـاجزة عـن فعـل أي شيء. جاءني مجموعة من الطلبة يطلبون موعداً لأشرح لهم بعض ما استعصى عليهم، فاعتذرت منهم. تمنيتُ لـو أخـذت فرصـة اضـطرارية، لكـن اليـوم اجتمـاع مجلـس الكليـة ولا

أستطيع التغيب. جلستُ مع بعض الزملاء والزميلات نتشارك فنجان قهوة قبل موعد الاجتماع عندما اتصل وليد يخبرني انه في طريقه لأمه في برمانا، ويطلب موعداً للقائنا. لهفته للقائي جعلتني استوعب مفاجأة قدومه، قلت له:

- لدي اجتماع الآن .. نلتقي في الحادية عشرة.
- في وسط بيروت؟
- لا .. في كورنيش الروشة .. أمام صخرتها.

ما أحلى الحب والمواعيد؟

يا لهذه المفاجأة، وليد جاء ليراني، وركب الطائرة من أجلي. جميل أن تشعر المرأة بأن الرجل الذي تحبه يفعل كل شيء من أجلها، ومؤلم جداً أن تكون خائفة منه في الوقت ذاته. أنا سعيدة بقدومه، وبالقدر ذاته أشعر بالخوف. أخاف أن أستيقظ من هذا الحلم الجميل الذي أعيشه، وأن ينكسر قلبي مرة أخرى. انتهى الاجتماع وأنا على أعصابي، لم أقل كلمة واحدة ووافقت على كل البنود المطروحة بدون مناقشة.

ذهبتُ بسرعة نحو الروشة وقلبي يسبقني.

نرفزتني عجقة السير، وعاكستني إشارات المرور فلم آبه لها. تنبهتُ وشرطي المرور يلاحقني على دراجته النارية. تنهدت وهو يتفحص دفتر السوّاقة ويمد لي بضبط المخالفة. أخذتها منه ومشيتُ ودقات قلبي تعنفني، وعيناي

ترسمان صورة وليد واقفاً أمام صخرة الروشة. يا صخرة الحب العزيزة. أريدك أن تكوني شاهدة حب عليه، أن تقفي بجانبي وبصف قلبي، فلطالما أحببتك واعتبرتك صديقتي. أمامك أشعر بالقوة، وأملك الشجاعة للاعتراف بكل حماقاتي، وأحاول أن أنسى أخطائي وضعفي وهشاشتي. أنت تعطينني الفرصة دائماً لأقول ما في قلبي، وتشعرينني بقربي من الله.

اختفى كل رواد الكورنيش فجأة، ورأيته هو فقط حالما أوقفتُ سيارتي. شامخاً بجاذبيته وعنفوانه، وأشعة الشمس تعكس أشعتها عليه. هو ينتظرني أمام صخرة الروشة، وبالتأكيد يستمع لها وهي تخبره كم انتظرته وكم تعذبت. مشيتُ نحوه وهو واقف ونظارته الشمسية تحجب عني عينيه. اقتربتُ منه أكثر فضمني لصدره بقوة أشعرتني بأني جزء صغير منه، تابع له وخاضع لسيطرته وحكمه. جزء صغير تارة يعلن عليه الحب وتارة يعلن الحرب. غمرني برائحته ورجولته، وأحكمت دقات قلبه سيطرتها على قلبي، وأشعرتني بأني أمتلك الدنيا.

قلبي يجعلني أسيرة حرب.

أيقظتني كلماته من سكرتي وأنا بين يديه، فنزعتُ النظارة عن عينيه وغرقت فيهما عندما اعترف لي: حرتُ بمشاعري في ميامي .. ظننتُ أني تعودت عليك فقط لقربك

منك واهتمامك بي .. والآن اكتشفتُ بأني ارتكبتُ خطيئة كبيرة .. أنا أحبك منذ ذلك الحين. أومأت برأسي وأنا لا أدري ما الذي يحدث لي، قلبي يرجف وعيني تخونناني وأنفاسي تضطرب. عانقته بقوة وبكيتُ، واستقرت دموعي على كتفه، دموع الانتظار والسهر. غمرته بقوة وشدّدت عليه وهو يكرر على مسمعي بأنه يحبني وجاء من أجلي قاطعاً المسافات والسنوات. أحاطني بذراعيه وراح يمسح دموعي بيديه وابتسامته تزين وجهه. طبع قبلة على جبيني وقال بنعومة بأنه لا يحب أن يرى دموعي. لكزت صدره بيدي والابتسامة تجد إلى وجهي طريقاً وقلت له: لا تتسبب ببكائي.

أغمضت عينيَّ وهو يبعثر قبلاته على وجهي، قبلاته الناعمة أشعرتني بالثمل وبدأ قلبي يرتعش. طلبتُ منه الذهاب لأي مكان فالناس بدأت تشتلق علينا، فضمني إليه مرة أخرى ودعاني لشرب القهوة في المقهى المطل على البحر. ذهبنا مشياً وذراعه تحيطني وأنا مازلت أحاول استعادة هدوئي. شربتُ معه فنجان قهوة، وفرحتُ من كل قلبي عندما لم أجد محبسه الفضي في يده اليسرى.

دعاني للذهاب معه إلى منزل أمه لتناول الغداء مع عائلته فوافقت. قرأت بسهولة نظرات الاستغراب في عيني أمه وأختيه رغم استقبالهن لي بحفاوة، وتناولنا غذاءنا في جو عائلي وحميم عندما اكتملت أفراد الأسرة. أمضيتُ بصحبته

بقية النهار، ومساءً تناولنا العشاء في المطعم الإيطالي في جونيه. لم آكل كثيراً فحبه والشغف المشع من عينيه وأحاديثه أشبعتني. اختفت ابتسامتي عندما أمسك بيدي وقال بجدية: أنا أحبك .. لقاؤنا بعد ثلاث سنوات ليس صدفة.. إنه وعد .. لا أدري كيف فاتني إدراك عمق هذا الحب .. كنت ضائعاً. وافقته فأنا لا أؤمن بالصدفة وكل شيء قدر، وبالتأكيد كان مضيّع حالو. بقيت أيدينا متشابكة، وأنا ساكتة أتأمل ملامح وجهه المعبرة. قبّل يدي بحُب بالغ، وسألني: هل تقبلين الزواج بي؟

بقيتُ ساكتة غير قادرة على الكلام، فمازلت غير مصدقة لما يحدث لي. يحيرني وليد برغم كل ما قاله، وبرغم اعترافه بخطيئته. هو يملك الحق في حبي والزواج مني الآن، وسابقاً لم يكن يمتلكه، وكثيراً ما قال لي ذلك وجرحني. استيقظتُ من أفكاري وهو يضغط على يدي ويطلب مني إجابة. أغمضتُ عينيَّ للحظة فظهرت شمس أمامي، وبسرعة تنقلت الصور في رأسي. لقائي به في ميامي وتأرجح قلبه بيني وبينها ومن ثم عودته إليها ولقاؤنا الأخير. تنهدتُ وسألته عنها:

- وشمس؟
- لا تكلميني عنها .. دعينا نعيش حياتنا بدون أن نفكر بأحد.

كنتُ مرتبكة:

- لكن .. ربما ...

قاطعني منفعلاً: أنا أحبك .. لم أعد أحتمل بعدك عني.

نهض من كرسيه وهو يقول لي: لن تطلبي لي الشرطة لو قبلتك هذه المرة. أمسك برأسي بين يديه وراح يقبلني، فاستسلم قلبي لشغفه وبادلته القبل، وعندما أحسست بأن الناس ينظرون لنا قلت له: حبيبي .. الناس. عاد لمكانه وهو يقول: لا أهتم بأحد. تنفستُ بعمق أحاول استعادة هدوئي، فأمسك بيدي وطلب مني الزواج مرة ثانية. سألته أيحق لنا أن نحب بعضنا؟ وأن نكون معاً وهو متزوج؟

صدمته كلماتي فصمتُ للحظات، وأنا أراقب عينيه وقد بدأ بريقهما بالخفوت. بدأ قلبي يكر ويفر، ورحتُ أخبره بكل الأفكار والأسئلة التي اختمرت ببالي منذ رحيله من ميامي. لماذا لم يحبني ومن انتزع منه هذا الحق؟. بحتُ له بكل عذاباتي وهواجسي، واعترفتُ له بالجنون الذي أصابني. تندت عيناي بالدموع فسكت، وضمني إليه مجدداً وسألني الزواج بأسرع وقت. تنهدتُ بقوة وأجبته: موافقة، لكني عدتُ وقلت له بأن شمس لن توافق، فقاطعني مبدياً عدم اهتمامه بموافقتها البتة ومتعهداً بمعالجة الموضوع معها.

وعدني ألاّ أشعر بوجود امرأة غيري في حياته، رغم أننا سنسكن في بيت واحد مؤقتاً، وطلب مني موعداً مستعجلاً لمقابلة والدي قبل سفره. فضلتُ إخبارهما بنفسي أولاً، فزواجنا ليس وارداً لديهما، فسكت وكأنه تذكر شيئاً. سألته

بـدلال: شـوّ بـك .. ألا تثـق بـي؟. بلـع ريقـه وتـنفس بعمـق، فأمسكتُ بيده بابتسامة قابلها بكثير من الجدية وهو يخبرنـي عن عدم إنجابـه: تزوجتُ بشمس منذ سنوات ولم ننجب .. زرنا العديد من الأطباء وجميعهم أكدوا بأننا لن نتمكن من الإنجاب معاً بدون مساعدة طبية .. لكن فرصة إنجابنا طبيعية لو كان واحد منا فقط يعاني الضعف .. ومن المفترض ألاّ يؤثر الأمر علينا لكني لا أستطيع أن أعدك بشئ.

عانقته وطمأنته، فحُبه لي هو الأهم. انتظرته طويلاً وها هو قلبي ـ الذي أحبه منذ رأيته ـ يحلف له يمين حب. بقينا مع بعضنا في المطعم نتحدث ونحلم. وهو يغمرني ويغازلني ويخاصرني ويوشوشني. يقول لي كلاماً يسكرني و يطربني، ويطير بي على أجنحة الشوق وأنا بين يديه وقريبة من قلبه، وساعات الليل تمر بهدوء. أحسستُ بأني خارج الزمان والمكان، لكن اتصال نادين أعادني إلى مكاني وزماني. الساعة تجاوزت العاشرة وأنا لم أعد إلى البيت منذ الصباح. خرجنا من المطعم وهو مازال يلح علي لمقابلة والدي، لكني كنت متشبثة برأيي، فعلي أن أتحدث معهما أولاً.

عدتُ إلى منزلي سعيدة ومنتشية، وقلبي الذي أفرط في الحب ـ اليوم ـ ثملٌ و يدق بإيقاعات مختلفة. تحقق الوعد أخيراً، ووليد الذي انتظرته طويلاً جاء يخبرني بحبه

وأشواقه. وجدتُ والديَّ وأختي نادين بانتظاري. سألتني أمي بقلق:

- أين كنتِ طوال النهار؟

قلتُ الحقيقة: برفقة وليد. سكتت والدتي ونظرات أبي وأختي تحثني على قول المزيد. جلستُ صامتة، خائفة ومرتبكة، ولم أعرف كيف أفاتحهم بالأمر. كيف أخبرهم بأنه عرض عليَّ الزواج ووافقت. سأتزوج بالرجل الذي أحبه، والفوارق التي يرونها بيننا لا تعنيني، لا ديانته ولا زواجه الأول. بلعتُ ريقي واستجمعتُ شجاعتي وجرأتي وقلت لهما بأن وليد جاء من أجلي، وطلب يدي للزواج، ويريد موعداً لمقابلتهما. لم يقل والدي شيئاً، لكني أحسستُ وكأن أمي توقعت ذلك أو أنها قرأت السعادة في عينيّ. رمقتني بنظرة حادة وطويلة ثم أعطتني شرطاً نهائياً لتتغاضى عن كل الفروقات.

- لا أقبل أن تكوني الزوجة الثانية .. ليطلق زوجته أولاً.

ابتلعتُ ريقي بصعوبة فأنا أعرف خصوصية علاقته بزوجته، أجبتها:

- لقد اتفقنا على هذا الأمر .. زوجته لا تعنيني ولم تشكل عائقاً أمام حبي وولعي به.

صمتُ والدي وأختي جعلني أوجه الرجاء لأمي ألاّ تعارض زواجي من الرجل الذي صليتُ كثيراً لكي يُقيم قلبي من آلامه، وأعرف بأن سعادتي بجانبه قلتُ لها والدموع

تتشردق في عيني بأنه حب حياتي الكبير، وأريد أن أعيش حياتي بجانبه. لم أملك قرار حبه فذلك كان قدراً مُنزلاً على قلبي. صرخت فيَّ: هو مجوّز .. ألا تفهمي؟

لا أستطيع مجادلة أمي في منطقها. هي لا تستوعب بأني عاشقة لا يهمني سوى الارتباط بحبيبي. سكتُ ودموعي تتحدث نيابة عني، فدعاني والدي إلى الجلوس بجانبه. ربت على كتفي وطلب مني ألاّ أبكي، لكني بكيت أكثر فقلبي لم يعد يحتمل. ضمني إليه بحنان وهو يهدهدني كما كان يفعل لي عندما كنت طفلة. مسحتُ دموعي بأطراف أصابعي وأمي مازالت تتذمر. طلب منها والدي التزام الصمت، وسألني بلطف إذا ما كنت أدرك معنى الارتباط برجل يخالفني الثقافة والعادات والتقاليد، كما أنه متزوج.

بدا والدي متفهماً أكثر وأكد لي بأنه لن يقف بطريق سعادتي، لكنه راح يحذرني من الانسياق وراء قلبي، فأنا بنظره عاشقة لا تقشع الأمور كما يراها هو وأمي. لم ألجم انفعالي ورحتُ اذكرهم بأني راشدة وأستطيع اتخاذ قراراتي بمسؤولية تامة، ومؤمنة بأن الدين لله وكل إنسان حر بطبيعة علاقته بربه. ردت أمي على كلامي بغضب:

- هذه ولدنة وليست مسؤولية .. وكأنه آخر رجال الأرض لتتقاسميه مع امرأة أخرى.

أردتُ أن أجيبها لكن والدي راح يمتص انفعالاتي ويذكرني بتشجيعهما الدائم والمستمر لي عندما أردت السفر لإكمال دراستي، لكن الزواج أمر مختلف فهو مشوار حياة. سكت لثوان ثم قال:

- أنت مسؤولة وعاقلة .. أخبري وليد بأن يأتي لزيارتنا .. هو ابن عيلة .. لكن هذا لا يمنع من السؤال عنه.. كما أن شقيقك له رأي بذلك.

سألته بوجل عما سأقول له فهو سيسافر بعد ساعات، وصرختُ بقوة عندما أعطاني موافقته، وانهمرت دموعي مجدداً وأنا أعانقه واقرأ الابتسامة في عينيه. زمت أمي شفتيها بانفعال فاقتربت منها. ضمتني إليها ودموعها المترقرقة في عينيها تحكي أمنياتها لي بالزواج في الكنيسة ليباركني الله، لكنها ترضخ لمشيئة قلبي والله سيباركني أينما أكون فهو أكبر وأهمّ من كل الناس.

هاهي الدنيا تنصفني.

جاءتني نادين في غرفتي. غمرتني بحنان، وسألتني إذا كنت أحبه لهذا الحد الذي يجعلني أتنازل كثيراً بنظرها. لم أجد ما أقوله لها فأردفت: لن أتحدث عن الدين فكلنا نعبد رباً واحداً .. لكنك ستكونين الزوجة الثانية .. لك شريكة فيه ستأخذ حقها وسيكون نصيبك النصف .. أمستعدة لحياة من هذا النوع؟ بلعتُ ريقي وبكيتُ على صدرها، بكيت بحرقة

كل السنوات التي انتظرته وتعذبت بسببه. أعرف بأنها تعرف القليل عن علاقتنا لكني أخبرتها الحكاية كاملة، منذ لقائي به في ميامي وحتى لقائنا اليوم. عادت وسألتني بالحنان ذاته: أيحبك؟ .. أيستحقك؟ .. أتثقين بقلبه؟

أسئلتها كانت تحديات كبيرة وخطرة وملغمة، لكني كنت متماسكة وقوية. أنا واثقة بأنه يحبني، ولذلك يستحقني، وسأمنح قلبه الثقة. لم أقرر مسبقاً أن أحب رجلاً متزوج عندما أحببته، وعندما قررت نسيانه لم أستطع. ببساطة نحن لا نملك قرارات الحب والنسيان. دعت لي بالسعادة وصلت من أجلي. تركتني برفقة أحلامي التي لن تتحقق بدون وليد. اتصلتُ به وأخبرته بما جرى، وأفرحتني نبرة الفرح في صوته. قال لي بأنه سيباشر بإجراءات الزواج لنعقد قراننا بأسرع وقت. طلبتُ منه أن يخبر شمس بأمر ارتباطنا فلا أريدها أن تشعر بالخداع، ووعدني بذلك. بقينا معاً حتى حان موعد ذهابه إلى المطار فجراً. لم تغمض عيناي وفي الثامنة أعددتُ لي فنجان قهوة شربته بسرعة وركبت سيارتي، أبرم في شوارع بيروت النعسانة في يوم العطلة. توجهتُ لبيت أختي ساندرا. طبعتُ على خدها قبلها وبسرعة أخبرتها بما حدث البارحة فسألتني: سعيدة؟ أومأت لها وأنا لا أستطيع إخفاء سعادتي، فلوت فمها وقالت: ضيّعانك.

***

كل الأشياء تحل لي، سأحمل صليبي وأتبع قلبي.

سبعة أيام وهمروجة الحب تعبث بي، ولم يتوقف مخي عن التفكير به وبحياتنا القادمة. بدأت الأسئلة الكبيرة تتسلل لي بهدوء. كيف سأذهب للعيش معه وسأترك لبنان؟ ماذا عن شمس؟ كيف ستتقبل الأمر وكيف سأواجهها؟ هل ستتقبل وجودي معها في المنزل ذاته؟ وأتقاسم وإياها الرجل ذاته؟

كل هذه الأسئلة لم تجد مخرجاً عندما جاء وليد بعد ظهر الخميس ليقابل والديّ ويتقدم بخطبتي رسمياً. كاد قلبي يتوقف وأبي يسألني رأيّ أمامه بحضور أمي وأختيَّ. قلتها بشجاعة، موافقة على الزواج منه وأعرف بأنه متزوج، ولا شروط لديّ. امتقع وجه أمي فقالت لوليد شروطها لتوافق. أن أبقى على ديانتي، وأن يسمح لي بزيارة عائلتي والنزول إلى بيروت متى أردت. وافق وليد برحابة على شروط أمي الشكلية فلا أنا أخرج من جلدي، ولا هو من سيمنعني من زيارة عائلتي فهو يأتي لزيارة أمه باستمرار. اتفقنا على عقد القرّان مساءً ولا أعرف إذا ما كانت موافقة والديَّ على مضض أم عن اقتناع بوليد، لكني متأكدة بأنهما سيفرحان لي وسيحبانه عندما يعرفانه أكثر.

ها أنا أتبع المحبة، وأقول نعم نعم.

جاء وليد مساءً برفقة أمه وزوجها وأختيه وجده ورجل دين. حضرت ساندرا وزوجها وأختي نادين وتم عقد قراننا بسلاسة في جو عائلي. عانقتني ساندرا وهمست لي بأنها سعيدة من أجلي برغم كل شيء، وكذلك فعلت نادين التي رأيتها تتحدث مع وليد ولاحقاً عرفت أنها كانت توصيه عليّ. أشرقت الشمس ووليد مازال معي. نتحدث ونضحك ونفكر ونحب بعضنا. حددنا موعداً لزفافنا بعد شهر، واتفقنا أن تكون الحفلة حميمة ومقتصرة على العائلة والأصدقاء المقربين. خرجنا من المنزل وتناولنا منقوشة وفنجان قهوة معاً على أحد أرصفة ساحة ساسين، ومن ثم اصطحبته ليودع أمه التي استقبلتنا بصلواتها وودعتنا بها، وذهبنا إلى المطار.

ما أصعب اللحظة التي ودعني فيها!

***

بدأت بالاستعداد لحفلة زواجي. زرت مصمماً ليخيط لي فستاناً، وبمساعدة ساندرا اتفقت مع منظمة حفلات ستهتم بالموسيقى والزينة والطاولات والتذكارات والعشاء. أردتُ أن يكون الحفل حميماً وبسيطاً وأنيقاً، يحضره من سيفرح من أجلي ويبارك زواجي من الرجل الذي أحب بعيداً عن كل العقد والإشكالات، واللوم الذي ناله والديّ من أعمامي وأخوالي لموافقته على زواجي برجل من خارج الطائفة،

رغم إصرار أمي على إخفاء زواجه الأول على الجميع. استقطعتُ إجازة من الجامعة وأخذت ما يلزمني من أوراق قد تفيدني للعمل في السعودية، فوليد وعدني بالعمل هناك، كما اشتريتُ الكثير من الملابس والحاجيات وبدأت ألملم أغراضي وكتبي وأودعها في حقائب كبيرة.

انشغلتُ لعدة أيام بولادة فدوى، التي أنجبت ابنها البكر إيلي. كنت أذهب لزيارتها وأساعدها على استقبال المهنئين كلما سنحت لي الفرصة. وعندما حان موعد زفافي كان كل شيء جاهزاً.

جلستُ في مقهى المطار أشربُ فنجان قهوة على وقع الانتظار. تأخرت طائره وليد لأكثر من ساعة أمضيتها في مراقبة العائدين والمغتربين ومستقبليهم. غداً موعد زواجي به، وسأذهب معه إلى السعودية، وسأواجه شمس رافعة راية السلم من أجلي ومن أجلها. سأفاوضها على الهدنة فلا يجب أن تستمر المعارك بيننا ونحن نعيش في منزل واحد. دفعتُ حسابي واتجهت نحو صالة الاستقبال حالما أُعلن عن وصول الطائرة.

وقفتُ مع كل المنتظرين وعندما أطل ممسكاً بحقيبته أسرعت نحوه وتجاوزتهم. ضمني إليه بشوق كبير فأحسست لحظتها بأن روحي ملكه وهو خالقها. هربنا من عجقة المطار وذهبنا مباشرة لأحد متاجر المجوهرات. اشترى لي

المحبس وخاتم الزواج الماسي، ثم أوصلته إلى منزل أمه وعدت إلى منزلي بسرعة. جلستُ مع أمي وأختي نؤكد على ترتيبات الغد. سأعود من مركز التجميل مبكراً وسيأتي المصور والموسيقي وستبدأ الحفلة في التاسعة.

التطرف في الفرح ميزة هذا اليوم.

نظرتُ إلى نفسي في المرآة، جميلة نعم، فاتنة نعم، والأهم إني سعيدة وأشعر بالرضا والتصالح مع الدنيا. الليلة حفلة زفافي من حبيبي، وعائلتي بجانبي تدعمني وتحميني من سيل الخبريّات. أعطتني ساندرا باقة الورد البيضاء وحثتني على الاستعجال فالكل بانتظاري، صديقتاي بصحبة أزواجهما، حماتي الست مادلين بصحبة والدها وزوجها وابنتيها، وعدد من أفراد العائلة والأصدقاء الذين جاءوا يشاركوني فرحي باحترام شديد لقراري بالارتباط بالرجل الذي أحب. نزلتُ درجات بيتنا بهدوء، ولم أرَ أحداً سواه ينتظرني بابتسامته وأناقته وإكليل الحب يزين جبينه العالي.

شعرتُ بنفسي طائر نورس أبيض صغير يود نشر جناحيه ليطير ويغط بجانبه. اقترب مني خطوة واحدة ممسكاً بيدي وطابعاً على جبيني قبلة اختصرت كل مشاعره ونبله وعنفوانه وبهائه. وضع في يدي خاتم الزواج بينما ظلت يده خالية كما أراد، وقطعنا قالب الكعك ثم تناولنا العشاء وتلقينا التهاني والأماني السعيدة من الجميع. غمرني بقوة، فطلبت

منه وأنا بين يديه وعداً بالمحافظة على أحلامي وطمأنة قلبي الذي أتعبته الحروب.

ظننتُ بأن الحرب وضعت أوزارها، وحان وقت الحب.

مرت عليّ فصول السنة كلها في ليلة واحدة. أمطرت سماء وليد على أرضي العاشقة فراشات وعصافيراً ونجوماً. أزهر جسدي سنابل قمح وورودا وكروماً، وأشرقت روحي متوهجة في سماء عينيه الصافية، ثم نمتُ على ذراعه بعد أن تساقطت عني أوراق الجنة. هكذا كنا ليومين، أنا لحبيبي وحبيبي إلي. عشنا على كوكب آخر، ولا ندري ماذا يحدث على الأرض. لوحدنا في غرفة الأوتيل المطلة على خليج جونيه، ونعزف سيمفونية شوق وحب وغواية.

***

لاحت صورة شمس أمامي حالما وصلتُ بيته في أحد أحياء المدينة الراقية، مميز ببناء هندسي وأنيق صممه وليد بنفسه. دخلتُ بصحبته إلى الصالون فداخلني القلق واستبد بي الخوف من مواجهتها، ولأنه يجيد قراءتي دعاني للجلوس بأريحية متوقعاً أن تكون شمس خارج البيت. جلستُ على الكنبة وعيناي تستكشفان البيت الذي أعطاني شعور بالألفة والدفء والهدوء، وأخفيت عن والديّ بأنه

سيجمعني مع شمس تحت سقف واحد، مدعية بأن وليد سيشتري لي بيتاً وحدي.

أدخل حقائبي ومحاولة منه للتخفيف من توتري سألني رأييّ بالديكور والأثاث، فأبديت إعجابي بأناقته وتميزه بكثرة المرايا واللوحات، وصورته الكبيرة في أحد جدرانه.

وفجأة ظهرت شمس أمامي، لا أعرف من أين جاءت، نزلت من الدرج أو السقف أو خرجت من الحائط. قالت لي بغضب: ستخرجين من هذا البيت الجميل حالاً. بلعتُ ريقي وأنا أراقب وجهها، بدّت ككتلة نار ترمي بشررها في كل الاتجاهات، وستنفجر بوجه من يقترب منها. التزمتُ الصمت ووليد يطلب منها أن تجلس لنتحدث بهدوء، لكنها أشارت لي بيدها بطريقة غير لائقة وهي تطلب منه إخراجي. سألها أن تتكلم عني باحترام، فقالت:
- أنا لن أتحمل وجود هذه ال.....
أنفعل وليد وأرتفع صوته:
- لا تتعبي نفسك .. ولا داعي لهذه الكلمات البذيئة.

صدمتني هستيريتها وأخافتني في الوقت ذاته، بدّت وكأنها لبؤة جريحة وموجوعة، وفي الوقت ذاته تحاول الدفاع عن نفسها بإبراز مخالبها. راحت تهدد وتتوعد، وترميني بنعوت قاسية وتتبادل الاتهامات مع وليد الذي حاول أن يظل هادئاً وهي تقود معركة استنزاف لصبره

ورواقه حتى فقد أعصابه، وذكرها بأنه صاحب القرار في هذا البيت. هي المرة الأولى التي أراه فيها منفعلا هكذا، كتلة نار وغضب. اقتربتُ منه، وأمسكت بيده طالبة منه الهدوء: روّق حبيبي. دعته شمس لسماع نصيحتي بسخرية وصعدت لغرفتها.

أعترف أن موافقتي على العيش معها في بيت واحد حماقة كبيرة.

عانقتُ وليد فطمأنني، فلابد أنها ستهدأ وستتقبل زواجنا كأمر واقع. دعاني لتناول الغذاء لكني لم أكن أشعر بالرغبة في أي شيء. ذهبتُ معه إلى المطبخ وهو يحاول أن يستعيد هدوءه بسرعة ويتصرف كعادته، وأعرف أن مزاجه معكر بالرغم من ابتسامته. راح يحدثني عن كيفية التحاقي بكلية التصميم الداخلي في جامعة الملك فيصل. أومأت له وهو يطعمني التفاحة التي قشرها بنفسه، وأنا أفكر بأشياء عدة جميعها تصب في ردة فعل شمس، وسأطلب من وليد أن يجد لي مكانا آخر غير هذا البيت. بلعتُ ريقي وقلت له: يبدو بأنها لن تتقبل وجودي هنا. أمسك بيدي ودعاني إلى التصرف بعفوية وعدم التفكير بها، لكن صراخ هبة قطع حديثه عندما جاءت تخبره بأن شمس أغمي عليها. ذهب بسرعة ليراها، وخلال دقائق عاد يحملها بين يديه وهي في حالة مريعة، شاحبة وفاقدة الوعي.

***

تلك الليلة كانت من أصعب ليالي حياتي.

تذكرتُ كلام أختي نادين، فحياتي لن تكون هنية وليلة البارحة - التي انتهت ببقاء شمس في المستشفى لإصابتها بانهيار عصبي - تنبئني بذلك. ثلاثة أيام بقيتها في المستشفى سببت لي قلقاً كبيراً، وأحسستُ بالراحة عندما خرجت من المستشفى وذهبت لمنزل أختها، فهي اختارت أن تبتعد وأنا أرحب بقرارها. كنت غبية عندما ظننتُ بأنها ستقف على يسار وليد وأنا على يمينه، وسيكون صاحب مبادرة تسوية بيننا، وسنوقع على معاهدة سلام. لا يهم، فالمهم أنها انسحبت من مواجهة هذه اللحظة وهي في مركز الضعف.

رفض شمس العودة إلى البيت مفضلة البقاء في بيت أختها، وعدم قبولها للحديث مع وليد، وتدخل أخوه محاولا إيجاد تسوية أو حلٍ للأزمة التي لم أعرف أبعادها بينهما، أرهقت وليد وجعلته متوتراً وثائراً تجاهها ولكن بصمت وجلد وتجاهل. لم يكن يخبرني بما يجري بينهما ولا يشتكي، لكني أعرف بأنه يفعل ذلك كي لا يضايقني، وليحافظ على وعده لي بأن لا أشعر بوجود امرأة أخرى في حياته. في إحدى الليالي ألقى رأسه على صدري كطفل متعب، وقال لي: أنا بحّبك، فابتسمت وأجبته: وأنا لا أحبك. لم يحرك ساكناً وكأنه لم يصدقني أو ليس مهتماً بما قلته، فتنهدتُ

وأردفت: أنـا أعبـدك. ابتسـم مـن قلبـه فغمرتـه بـين ذراعـيّ. يومهـا أدركـتُ أنـه يخفـي وراء كـل هـذه القـوة والكبريـاء والعنفوان طفلاً صغيراً مـازال يعيش فـي قلبـه، ويجـب أن يطلقه كي يلعب ويضحك ويركض هنا وهناك.

***

كانت أيامي الأولى في الخُبر متشابهة.

أنا غارقة في الحب إلى حد شوشتي بعيداً عن كل شـيء. أستفيق من نومي بعد أن يذهب وليد إلى عملـه، بفنجـان قهوة وصوت فيروز، أقرأ كثيراً و أشاهد التلفزيون كثيراً. أمارس الرياضة أحياناً، وأطبخ أحيانـاً بعض المـأكولات التـي يحبهـا وليد، كشـوربة الـدجاج بالـذرة والملوخيـة والمحشـي. تـنجح أحياناً وتفشل أحياناً كثيرة لكنه يأكلها ويقول بأنها لذيذه مهمـا كانت سيئة. بعد الظهر انتظر عودته من عمله فنتناول الغداء معاً، وإذا كان متعبا أدلك ظهره وأريحـه مـن ضـغوطه لينـام لسـاعة، أو أنـام معـه بعـد أن نشـرب مـن كـأس الحـب. لـيلاً نخـرج ليعرفنـي علـى المدينـة، نـزور المقـاهي والمطـاعم والأسواق، أو نجلس في الواجهة البحريـة. أحيانـاً يـذهب إلـى أصحابه، لمشاهدة مباراة كرة قدم ولكنـه يعود سـريعاً كـي لا يتركني وحيدة.

هذه هي الخُبر إذن، مدينة رمادية لا تحب الكلام.

فاجـأتني كثيـراً، وجـدتها مدينــة إسـمنتية بـلا أشـجار ولا غيوم ولا قمر. لا طابع هندسي يميزها، بيوتـها متشـابهة، ولا يطـل أحد من شـبابيكها. شـوارعها خاليـة مـن المشـاة. مدينـة متسلطة، لا حـدائق فيهـا ولا سـاحات ولا مسـارح ولا سـينما ولا سـهر. أعطـاني وليـد قائمـة مـن الممنوعـات. ممنـوع أن يظهر شعري، وأن أغمره أو أقبله في مكان عـام، أو أمـارس الرياضــة، أو أشـرب فنجـان قهـوة مـع صـديق أو زميـل أو جـار، أو أن أدخـل مبنــى حكوميـاً، أو أركـب سـيارة أجـرة. ممنـوع إبـداء الآراء السياسـية أو الحـديث عـن أي مطـالبـات حقوقيــة وإصـــلاحية، أو الحـــديث عـــن تفشـــي الفســـاد والمحســوبية، أو انتقــاد القــوانين الحكوميــة مهمــا بــدت لا منطقيـة أو متخلفـة. كمـا لا يجـب أن يـرى أحـد الصـليب فـي عنقي، أو أجاهر بديني أو أتحدث عنه، فقد يعتبرونـه تبشـيراً وهـذه جريمـة يعاقـب عليهـا القـانون. سـألته مـرة عمـا يفعلـه النســاء فــي بلــدهم، فقــال لــديهن عــدد محــدود مـن الخيـارات كالنوم، مشاهدة التلفزيون والتسوق، أو تصفح الانترنت.

***

تناولنا طعام الغذاء ثم ذهبتُ لأعد القهوة وعينـي تراقبـه، وهو يمسك بهاتفه الخلوي يتصل بشخص لم يرد عليـه. لا بـد أنـه يريد الحديث مع شمس ويطلـب عودتهـا إليـه ويخفـي ذلـك عنـي. أحضـرتُ القهوة فشربها وامتدحها كعادته، لكنه قال لـي

بأنــه تزوجنــي مـن أجلهـا. ضـحك بقـوة فأحطـتُ عنقـه بيـدي وهددته بالخنق وسرعان ما أعلن توبته وطلب منـي السماح. ذكرتــه بمـرور شــهر علــى زواجنــا واتفقنــا علــى الاحتفـال بالمناسبة.

تزينتُ وذهبت مع إلـى المجمـع التجـاري. أهداني سواراً بلاتينياً ثم ذهبنا لتناول العشاء في الخـارج، ونعيد ليالي الحب والولـع. ليلـة حـب بـدأت فـي المطعـم الايطـالي وانتهـت فـي غرفة نومنا. لم تغمض عينـاي بعد أن رحلنـا فـي رحلـة حـب لذيـذة ومجنونــة. أشـعلني وليـد ونـام ملتصـقا بـي. كـم أحـب التصاقه بي وهو يحيطني بذراعيه ليشعر بأنه يمتلكنـي، وفـي الحقيقة أنا من يمتلكه.

***

أزهرت موّاسم الحب.

فرحتُ عندما أخبرني وليد بأنه حصل لـي علـى عمـل فـي كلية التصميم الداخلي بشكل تجريبـي وبـدون راتـب. وافقت، فعلــى الأقـل ســأخرج مـن المنـزل وســأرى النــاس وأحــس بكياني. يومي الأول لا ينسـى، متحمسة وخائفـة، لكنـه انتهـى علـى خيـر. عدتُ من الجامعـة بعد الظهـر مـع وليد، مررنـا بأحـد المطـاعم لنشـتري غداءنا وذهبنـا للمنـزل. أخبرتـه بمـا جـرى منـذ الصـباح. لقيـتُ استقبـالاً جيـداً مـن الـزميلات ومـن

عميـدة الكليـة. وتعرفـت علـى طريقـة التـدريس والأنظمـة والمـواد الدراسـية والجـداول وطـرق التـدريس المعتمـدة والمشاريع المقامة، لكن الغثيان الذي أصابني منذ أن تناولت وجبة خفيفة من الكافتيريا أتعبني، فحذرني من الأكل هناك.

سكبتُ طعام الغداء وأكلنا وأنا ما زلت أحدثه، فعاودني الغثيان مرة أخرى وشعرتُ بكل ما أكلته يصعد تدريجياً من معدتي ويخنقني، وارتحت عندما أفرغته كله. قلق وليد عليَّ أسعدني، وساعدني على الاستلقاء في الأريكة. بلع ريقه وهو ينقل لي مخاوفه بإصابتي بتسمم غذائي، لكنني طمأنته بأني سأكون بخير. طلبتُ من الخادمة أن تجلب لي كأساً من الماء البارد ونصف ليمونة رحت ألعقها ووليد يراقبني باستغراب.

غط وليد في نوم ساعة العصرونية التي تعودها، وتركني أعبث بأفكاري. تذكرتُ ساندرا في حملها الأخير والأعراض التي رافقتها في شهورها الأولى، كما أن الميعاد الشهري تأخر لأكثر من أسبوعين، فهل أنا حامل؟ قررتُ زيارة الطبيبة المختصة بدون أن أخبره بالسبب فربما أكون على خطأ، لكنها أكدت حملي بثمرة حب صغيرة عمرها أربعة أسابيع. فرحي لأجل وليد النّاطر لهذا الطفل منذ سنوات اختزل مشاعري، فأصبحت سعادتي وفرحي هي سعادته وفرحه. عانقته بقوة، وبهجتي تعبر عن نفسها من خلال ابتسامة عيني. طمأنته عليّ، فقرب شفتيه من أذني

وسألني همساً أن أخبره بما قالته لي الطبيبة ليطمئن أكثر. ابتسمت بفرح طفلة وقلت له:

- أنا حامل.

ظل صامتاً ولم يبدِ أية ردة فعل، فأومأتُ برأسي وأعدت الخبر على مسمعه. أمسكتُ بيده ووضعتها على بطني وأخبرته بأن حملي تأكد بالتحليل المخبري والسونار. أبتسم بخوف وتردد، وقال لي ودمعة فرح ترقص في عينيه: لو خرج لي المارد من قمقمه يوماً لما طلبتُ منه غير أن أرزق طفلاً.

***

فاحت رائحة السعادة في الخُبر ووصلت بيروت.

جاءت حماتي مادلين لزيارتنا معللة قدومها بالاطمئنان عليّ وإعطاء وليد مبلغاً كبيراً من المال ليبدأ بمشروعه، لكن هدف زيارتها الآخر كان مصالحة شمس وإيجاد الحلول لأزمتها التي بدأت تتعقد. بقيت عدة أيام، لكن اعتلال صحة والدها جعلها تعود بسرعة إلى بيروت تاركة الأمور هكذا معلقة، وصباح اليوم التالي جاءنا خبر وفاته.

دمعت عيناي وأنا أمشي في طرقات بيروت، المتشحة بالبرد والشتاء، ذاهبة إلى كنيسة برمانا، ووليد صامت في

حضرة الموت. بكيتُ ووليد يعانق أمه وهي تبكي والحزن يفرض سلطته على الجميع. شعرتُ بالإرهاق، فذهبتُ إلى منزل عائلتي في الأشرفية بعد انتهاء القداس الجنائزي والدفن. تفهم وليد ذلك، وبقي مع أمه في استقبال المعزيين.

ما أقسى عناق الحزن والحنين، وما أصعبه!

ثلاثة أشهر قضيتها في السعودية جعلتني أشتاق لبيروت بشكل آخر، وكأنني غبت عنها سنين طويلة. مشتاقة إلى الحياة الطبيعة، إلى الناس في الشوارع والمقاهي والساحات، إلى شراء قطعة كعك من بائع متجول، إلى مشاوير الجبل ليلاً، إلى جلسات الأرجيلة في الكورنيش، وإلى السهرات على سطيحات البيوت. مشتاقة لرؤية شتلات الزريعة في الشبابيك، وباعة الجرائد على الأرصفة، وإلى صور السياسيين في كل مكان.

ليلة واحدة في بيروت لم تكن كافية لشيء، بل حرقصتني لزيارة الأماكن التي أحبها ولا يتسع الوقت ولا يسمح الظرف. ما أجمل الزينة وشجرة العيد في كل مكان، وساحة ساسين ترتدي الزينة والأضواء والفرح. قسمتُ هذه الليلة اليتيمة، شربتُ فنجان قهوة مع والديَّ السعيدين بقدومي وبحملي بأصغر أحفادهما، وثرثرتُ مع أختي ساندرا التي لم يتسع الوقت لأخبرها عن كامل حياتي الجديدة، والتقيتُ بصديقتيّ فدوى ولينا.

نمت في غرفتي بعد يوم طويل وشاق، واستيقظتُ صباحاً على صوت أمي تدعوني لتناول الترويقة معها ومع أبي، ولأننا لم نجتمع على سفرة منذ أشهر، فكان طعمها طيباً أكثر من أي وقت مضى. جاء وليد في الظهيرة، وغمرته أمي بين ذراعيها لأول مرة. عزّته بفقدان جده، وطلبت منه العناية بي أكثر فطمأنها وبدد قلقها. تشاركنا شرب فنجان قهوة، و ذهبنا مباشرة إلى المطار عائدين إلى الخبر.

***

بدأت أحاسيس الأمومة تكبر فيَّ كلما بدت تغيرات الحمل على جسمي، حتى علاقة وليد بطفلنا القادم توطدت أكثر، وكأن انتفاخ بطني جعله يتيقن ويستوعب حملي. اشترى عدداً من الكتب الطبية، لتوضح له كيف ينمو الطفل كل أسبوع، فأصبح يراقب نموه وتطوره، ويريد أن يعرف متى يدق قلبه، ومتى تتكون يديه، ومتى يفتح عينيه، ومتى يتحرك، ويفرح كلما شعرتُ بالغثيان، ويتحمل سوءات مزاجي. يرافقني باهتمام في مراجعاتي الطبية ليطمئن عليّ وعلى الطفل القادم. يخطط لتسميته ولتربيته ولدراسته، ويتخيل شكله. يحلم به يبكي، ويرضع، ويلعب. يكلمه ويلاعبه ويهوي على بطني ويقبله، ويسألني عنه باستمرار.

يحسب يوم ولادته بالأيام ويعدني بمشاركتي الاهتمام بكل شؤونه، حتى تغيير الحفاظ وإعداد الببرونة.

أحلامه وسعادته بالطفل القادم أفرحتني، وحبه وشغفه بي الذي ازداد عما قبل أسعدني أكثر. قال لي مرة:

- أنا أسلمك نفسي وعمري .. وأنت تملكيني .. بين يديك أنا مخلوق ضعيف لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً.

***

قلبي فوق الجميع.

يبدو أن الحرب لم تنته بعد وعليّ أن أنتصر، ففي الحب لا وجود لتفاوض، أو هدنة، أو تسوية. إما أن أنسحب من المواجهة وإما أن أتورط حتى أخر نفس، وها أنا أعلن الحرب من جديد. أنا ثابتة وقوية ومتمسكة بوليد، حبيبي وزوجي ووالد طفلي القادم. أحبه ولا أشرك بحبه أحداً، وأحارب من أجله فالحب ليس كلاماً، ليس شعراً، وليس ورداً أحمر نشتريه في الرابع عشر من شباط. الحبُ موقف، وأنا شجاعة بما فيه الكفاية لأصارحه وأواجهه بأني الوحيدة التي تحبه، وتركت كل شيء ورائي وجئت معه، وشمس لا تحبه أبداً.

منذ خروجها من المنزل، ومحاولات الصلح لم تتوقف، وأخوه مستمر بإيجاد الحلول وتقريب وجهات النظر جاعلا من نفسه عرابا للصلح. تلك الليلة، كان جالساً بجانبي نقرأ معاً في كتاب يتعلق بصحة المرأة الحامل وتغذيتها عندما رن هاتفه. أجاب ببضع جمل مختصرة ولا يريدني أن أسمعه، فسرت في دمي ثورة. لابد أنه يخفي عني شيئاً ما وتكتمه عما يجري بينهما وراءه سبب. سألته بانفعال عما يريده أخوه فلف ودار، وأخبرني بعد قليل من المراوغة بأنه سيذهب إلى شمس وسيعرض عليها الصلح راضخاً لشروطها مهما كانت ويسوي الخلاف بينهما. لا أحد يستطيع تصور النار التي اضطرمت في قلبي، فأنا أعرف ما الذي تريده لتقبل بالعودة إليه. لا تريد بيتاً، ولا شيئاً آخر، ولن تكتفي بخروجي من البلد. هي ستشترط عليه طلاقي.

انفعلتُ، واشتعلتُ، واحترقتُ، فهو متلهف لها برغم كل ما فعلته معه ويريد تلبية مطالبها. انطلقت نظراتي طائشة ومحمومة في كل الاتجاهات وسألته بغضب لم أستطع كظمه:

- شو خواجا؟ .. ستذهب إليها؟
- هي زوجتي أيضاً.

لم أتمالك أعصابي فرميتُ بالكتاب أرضاً وقلت له ما في قلبي. أعرف بأنها زوجته، وهذا أمر أتذكره كل دقيقة، ولأنه لا شيء بدون ثمن واجهته: يجب أن تنقشع عن عينيك هذه

الغمامة .. حان الوقت لتعرف بأني الوحيدة التي تحبك وتركت ورائي كل شيء من أجلك .. هي لا تحبك .. وعليك أن تفهم هذا.

كانت كلمة قريبة مني، في فمي وقلبي، فقلتُها.

ردة فعلي فاجأته، فهو لم يختبر عقلاتي في الحب والغيرة. تعلقت الدموع برموشي، فاقترب مني يمازحني ويطلب مني الهدوء. أحاطني بذراعيه فتجنبتُ النظر لعينيه حتى لا أضعف، ورميتُ بأوراقي الأخيرة مراهنة على التضحيات التي بذلتها من أجله، وعلى الحب الذي ينمو في أحشائي. طلبتُ منه أن يذهب إليها، وأن يعرض عليها الصلح مقابل خروجي من المنزل وعيشي في شقة أو مدينة أخرى بعيدة عنها.

ظل ساكتاشث فتركته وذهبتُ إلى المطبخ. لحق بي ونظراته تطلب الإذن بالذهاب إليها. هززتُ رأسي وقلت له: روّح. ضمني إليه بقوة أشعرتني بضعفي تجاه حبه، وبقيتُ بين ذراعيه وهو يؤكد لي بأنه يحبني، لكنه يجب أن يسوي الأمر معها. مازحني بامتداح غيرتي، فأدرت عنه وجهي بدلال والابتسامة تجد طريقاً لي وقبلاته تتناثر على وجهي برقة. تحسستُ بطني مصغية لما يقوله طفلي عبر حركته، فقال: روّقي .. التوتر يضرّك ويضرّ بطفلنا. تمتمتُ: نعم ..

يجب ألاّ أنفعل. تمنيتُ عليه ألاّ يتأخر كي لا أنفعل أكثر، وطلبتُ من الخادمة أن تجلب لي كأس اللبن لغرفتي.

استلقيتُ على سريري أفكر بما قد ينتج عن لقائهما. هو أمام مفرق صعب، وعليه أن يعرف طريقه الصحيح. قد تقبل شمس بالصلح، لكني أستبعد عودتها إلى المنزل وعيشنا معاً كما كان يخطط وليد، وفي كل الأحوال لن أسمح لها بأن تحول حياتي إلى جحيم بتأثيرها عليه. بقيتُ استمع إلى الموسيقى وأنا أفكر بالبوح لأحد عن كل ما يشغلني. فكرتُ بالاتصال بساندرا وتراجعت بسرعة عندما سمعت وقع خطواته. عاد إليَّ مهزوماً وحزيناً ومعترفاً بانتصاراتي، وبأني الوحيدة التي تحبه ومستعدة لفعل أي شيء من أجله.

***

ها هي الأيام تمضي، وكل يوم يمر عليَّ يجعلني أثق بالوقت أكثر، وأؤمن به أكثر. هو الإله القاهر، والأول والآخر، و القادر على كل شيء. أصبحتُ الآن الزوجة الوحيدة والشرعية لوليد، ووضع محبساً فضياً محفور عليه اسمي في يده اليسرى. هو وشمس تطلقا بناء على رغبتها، بغض النظر عما إذا كانت حقيقية أم لا، بعد أن رفضت الحلول التي اقترحها وليد عليها، وفشلت كل الوساطات.

ذلك اليوم، كان صعباً وحاسماً وخارقاً في حياتي.

عدتُ إلى المنزل بعد نهار طويل في الجامعة، ووليد شارد وصامت ويخفي عني ما يشغله. سكبتُ الطعام وأنا أحاول أن أحدثه بمرح علني أخفف من الضيق الذي يخنقه وهو يقاومه. كان يأكل بسرعة وهو في حالة التوتر نفسها منذ البارحة. أمسكت بيده وسألته، فقال لي بهدوء ينبئ بعاصفة بأنه سيذهب ليرى شمس. غضبتُ كثيراً، فهاهو يريد الذهاب إليها برغم كل شيء، وبرغم كل ما حدث بينهما البارحة عندما اكتشف عن طريق أحد أصدقائه سفرها إلى المدينة المنورة. ثار وغضب معتبراً تصرفها انتقاصاً من احترامه، ونقضا للرابطة الزوجية التي مازلت بينهما.

ذهب إليها، فاستفزته برفضها لما تعتبره تدخلاً منه في حياتها، وتوعد بجلبها إلى المنزل بحكم محكمة ليذلها فقط. عاد إليّ غاضباً وأخبرني بما جرى. أزعجني الأمر فأنا لا أحب أن يتعامل مع امرأة، أياً كانت، بهذه الطريقة العنيفة. طلبتُ منه أن يدعها وشأنها فأبى. انفعاله جعلني أتجنب مناقشته، فظل طوال الليل متوتراً ولم تفلح محاولاتي في إخراجه من ضيقه وإعادة الهدوء إليه. تركته إلى الليل ليهدئه ويهدهده، وتمنيت لو أنه يعيد حساباته ويغربل أولوياته فيعرف من معه ومن عليه.

وها هو اليوم يريد مقابلتها مرة أخرى. طلبتُ منه أن لا يذهب إليها، وقلتُ له بانفعال: هي لا تستحق العناء. نظر لي

بعينين لم أعهدهما قبلاً، فيهما الكثير من الغضب والثورة والهزيمة أيضاً، ووعدني بأنها الزيارة الأخيرة، وكانت الأخيرة فعلاً.

***

أنا في مهب النسيان.

بدأت أضيق من هذه المنفى الذي يخنق أحلامي، ويحاول محو ذاكرتي وأحب الأشياء إليّ. صخرة الروشة وزبد البحر في الرملة البيضاء، وعبق التاريخ في طرقات جبيل، ورائحة مناقيش الزعتر من أفران الأشرفية، وعبير زهر الليمون في ضواحي بيروت.

أخاف أن أنسى صور أحبائي وأسمائهم. أخاف أن أنسى ذكرياتي، وأغنيات مراهقتي، وأثار خطواتي في ساحة ساسين فأنا تحت الإقامة الجبرية. أنا خائفة على بيروت المتغلغلة في أعماقي، فليس بالخيانة فقط تسقط المدن، بل تسقط بالنسيان أيضاً.

خضتُ حرباً شرسة، صمدت وقاومت وانتصرت، وعليَّ أن أحافظ على انتصاراتي.

استلقيتُ على السرير، وأنا أنتظر اللحظة المناسبة التي لا يستطيع وليد أن يقول لي لا. استلقى بجانبي، وأمطرني بقبلاته فصارحته بأفكاري ومخاوفي من النسيان. قلت له: لا شيء هنا يمت إلينا بصلة، وطلبتُ منه أن نرحل ونعيش في مدينة تليق بطموحاتنا وأحلامنا وبمشاعرنا. نستقر في ميامي أو دبي، وهناك يفتتح المكتب الهندسي الذي يحلم بإنشائه، وأستطيع العمل معه إلى جانب عملي الأكاديمي. نظر لي بصمت لم أعرف معناه، وراحت عيناه تتنازل عن قوتها وسلطتها وجبروتها، وتخالف توقعاتي برفضه وتمسكه بالبقاء هنا.

أدار لي ظهره، فاحتضنته وأسندتُ رأسي على ظهره. ظل في حضرة صمته وتفكيره لدقائق إلى أن قال لي: سأرحل حيث تريدين فقلبك وطني .. ولدتُ فيه وأريد أن أعيش وأموت على أرضه.

***

امتلكنا قرارنا بكل جرأة بعد كثير من التفكير وقليل من الحيرة. اخترنا دبي مدينة نعيش فيها ونعمل ونحلم وننجح ونحب بعضنا، ونصلي لربنا كل على طريقته. تلك الإمارة الواقعة على الخليج العربي، والنائية عن التطرف والإرهاب والتخلف، أصبحت بلدا ثانيا لكل الحالمين بحياة أفضل، وبالعيش في المستقبل بعيداً عن الصراعات، فيها يعيش

الإنسان برقي ورفاهية وطمأنينة وحرية وسلام وتعايش مع مختلف الجنسيات والأديان في ظل احترام القانون. هناك سأكون إنسانة بكل ما تعنيه الكلمة، لا أساوي صفراً، ولست عيباً، ولا كائنا محكوماً بغطاء رأس أسود.

وجدت لنا أختي نادين شقة تمليك ملائمة - عن طريق وسيط عقاري - في أطراف المدينة بعيدا عن الازدحام المتمركز في وسطها. وبدأ وليد بمراسلة المكاتب الهندسية، وشركات التطوير العقارية، والاتصال بمعارفه من المهندسين هناك بحثا عن عمل. وعدته أمه بدعمه من أجل إنشاء مكتبه الخاص، لكنه آثر تأجيل المشروع قليلاً. شعرتُ بأنه ينتظر الفرصة والتشجيع على الهجرة خصوصاً بعدما رحبت أمه بقراره واعتبرته خطوة إلى الأمام، أما أخوه فلقد اتهمني ضمنيا بأنني السبب في إبعاد وليد عن كل من يحبونه.

***

تركتُ عملي، وبعد أيام تقدم وليد بإجازة استثنائية من عمله ليتفرغ لانتقالنا التدريجي إلى دبي. استيقظتُ باكراً في أول أيام إجازته. أيقظته بصعوبة، فلقد تأخر في النوم وهو جالس أمام شاشة الكمبيوتر، يبحث ويقرأ عن مدينتنا الجديدة. قبّلته، ويدي تداعب جبينه ووجنتيه وشفتيه. غسل

النعاس عن وجهه ثم عرض عليّ الخروج لتناول الترويقة في أحد المقاهي، فوافقت.

يومها، أحسستُ بأنه لي، وحدي أنا في حياته، ويجب أن أكون كذلك في قلبه وذاكرته أيضاً.

تلذذنا بشرب القهوة مع قطعة كعك شهية في صباح هذا اليوم البارد من شتاءات الخبر، ولا أدري لماذا استفاقت الذكريات فيّ فجأة عندما بدأت السماء برش قطرات ناعمة من المطر. رحتُ أحدثه عن الحرب التي عشتها بعد سفره من ميامي، وعن عمليات النبش المستمرة في ذاكرتي وذاكرة ميامي لكل ما يتعلق به، كلماته وتصرفاته وأفكاره ومشاعره. صارحته بأني خائفة على ذكرياتي من النسيان الذي صليتُ كثيراً ليحل في قلبي، وأنساه، عندما كنت تائهة في دروب الحب. قلت له: لذعني الحب .. حدّ الجنون والهوس .. أريد أن أؤرخ هذه الحرب.
أمسك بيدي وسألني بجديه:
- عندما تؤرخينها .. اجعليني شخصا آخر.

اعترف لي لأول مرة بأنه يتمنى لو يهبه الله القدرة على تغيير ماضيه، لاختار أباً آخر، وعاش في مكان آخر، ومحا من ذاكرته أشخاصاً وحذف من عمره أعواماً، وعدّل كثيراً في مسار حياته. سألته:
- ومن سأكون في حياتك المعدّلة؟

لمعت عيناه وقال:

- تكونين مظاهرة .. أو انتفاضة .. أو ثورة .. وتطيحين بي منذ اللقاء الأول.

***

تلقى وليد عدداً من عروض العمل الجيدة، فقرر الذهاب إلى دبي لإجراء المقابلات الشخصية، ولشراء الشقة وتسجيلها، وسيستقر هناك ما أن يبدأ عمله الجديد. أما أنا فسأذهب لزيارة عائلتي، وسأبقى في بيروت حتى موعد ولادتي، وبعد ذلك أذهب معه.

شعرتُ بأني تركت قلبي في الخبر.

حزمتُ حقائبي وأوصلني إلى المطار. غمرته غير آبهة بالمتلصصين، وهو يوصيني الاهتمام بنفسي وبطفلنا القادم، ويعدني بأن يأتي إليّ بأسرع وقت. تخطيتُ حاجز المسافرين وهو مازال واقفاً يلوّح لي من بعيد. صعدتُ الطائرة وذكريات وداعنا الكثيرة تحوم حول قلبي، وداعنا الأول في ميامي وأنا على حافة الانهيار، ووداعنا الثاني في بيروت وأنا على حافة الأمل، والثالث وأنا على حافة الحب، وهذا وداعنا الرابع في الخبر وأنا على حافة الانشطار.

***

أضـواء بيـروت لـيلاً أثـارت فـيّ حزمـة مشـاعر، شـوق ولـهفة وحنين.

تآمرت دموعي عليّ، ما أن قبّلت عجلات الطـائرة تراب بيـروت. اتصـلتُ بوليـد وطمأنتـه علـيّ، وتمنيـتُ عليـه للمـرة الألف ألاّ يتأخر عني فقلبي لا يحتمل فراقه.

وجـدتُ سـاندرا بانتظـاري فـي قاعـة الوصـول، عانقتهـا وذهبنـا معـاً إلـى بيتنـا فـي الأشـرفية. سـعادة أمـي بقـدومي، وبحملي الذي بلغ شهره الخامس، وأعلـن نفسـه علـى خارطـة جسـدي، كانـت كبيـرة. أحـاطتني بـدلال ذكرنـي بطفـولتي، وأيدت قراري بـالولادة هنـا لتهتم بـي وتعتنـي بطفلـي. قالـت لـي: خـيّ .. ستعيشـين مثـل بـاقي الخلـق فـي دبـي. تناولـتُ عشـائي مـع والـديّ، وأمضـيت معهمـا وقتـا حميمـا نأكـل الكستناء المشوية أمام شاشـة التلفزيـون، وذكريـات طفـولتي تفـرض نفسـها علـى ذاكرتهمـا، وأنـا علـى وشـك أن أهبهمـا حفيداً جديداً.

***

أيقظني اتصـال وليد صـباحاً يعلمنـي بوصـوله إلـى دبـي ، وهو في طريقه إلى مكتب العقارات ليعـاين الشـقة، وسيباشـر بــإجراءات الشـراء والتسـجيل فـوراً إذا أعجبتــه، ووافقـت

المواصفات التي طلبتها. تروقتُ مع أمي وقاسمتني فنجان قهوة، ثم رافقتني إلى مستشفى الجامعة الأمريكية. قابلتُ الطبيب الذي سيشرف على رعايتي في المدة المتبقية من حملي، وطمأنني بأني والطفل نتمتع بصحة جيدة، ولكنه لم يكن متأكداً من جنسه، وحدد لي موعداً آخر بعد شهر.

عدتُ إلى البيت، وبقيت مع أمي نشاهد التلفزيون عشية عيد العشاق الذي يستقبله اللبنانيون بافتتان واضح، فهو موعد للاحتفال والسهر وشرب الأنخاب والتسوّق وتبادل الهدايا التي تعد خصيصاً للمناسبة. ابتداء بعلب الشوكولاتة المصممة على شكل قلب أحمر، إلى بطاقات المعايدة، وأنواع مميزة من الحلويات، والثياب الداخلية النسائية، بالإضافة إلى الكثير من أنواع العطور والزينة والهدايا التذكارية والورود الحمراء.

ضمتني غرفتي بين جدرانها ليلاً، وراحت تبوح لي بأشواقها لحركتي وسكوني، سهري ونومي، ضحكاتي ودموعي، لملابسي وشموعي وعطوري وكتبي، ولشتلات الزريعة التي تركتها وسافرت مع حبيبي. أضاء وليد عتمة غرفتي عندما جاءني صوته من طاقة الحب التي مازلت مشرّعة لغزله وأشواقه وحبه. أخبرني بأنه اشترى الشقة، وحجز تذكرة قدومه إلى بيروت، وسنحتفل معاً في عيد سان فالنتين بعد غد.

***

لـديّ أشـياء كثيـرة لأقـوم بهـا، لكـن أولاً علـيّ أن أتنـاول فطوري وأشرب فنجان قهوة.

أحسستُ نفسي طفلة صـغيرة وأنـا أرافق والـديّ لحضـور قُداس الأحد، أسمع العظة والتراتيل، أصلي وأمجد الرب فـي عليـاءه. صـليتُ أشـكر الله، الألـف واليـاء، والبدايـة والنهايـة، والقادر على كل شـيء. صـليتُ من أجل السـلام، علّـه يسـود في قلبي، وفي قلوب اللبنانيين إلى أبد الآبدين.

سبحتُ الله ومجدته، كما مجدته مريم العذراء.

تُعظم نفسـي الـرب، وتبـتهج روحـي بـالله مُخلصـي، لأنـه نظـر إلــى اتضــاع أمتــه. فهـوذا منــذ الآن جميـع الأجيــال تطـوّبني، لأن القـدير صــنع بــي عظــائم، واســمه قُـدوس، ورحمته إلى جيل الأجيـال للذين يتقونـه. صـنع قوة بذراعـه. شتت المستكبرين بفكر قلـوبهم. أنـزل الأعزاء عـن الكراسـي ورفـع المتُضـعين. أشـبع الجيـاع خيـرات وصـرف الأغنيـاء فـارغين. عضـد إسـرائيل فتـاه ليـذكر رحمـة، كمـا كلـم آباءنـا. لإبراهيم ونسله إلى الأبد.

تنـاولـتُ غـداء الأحـد مـع عـائلتي، ثـم ذهبـتُ أتسـوّق فــي ساحة ساسين المرتدية اللون الأحمر وتحتفل بالحب في عيده

مع كل العشاق. اشتريتُ لوليد عطراً فرنسياً سأهديه إياه غداً، واشتريتُ لي فستاناً ملائماً لسهرة الغد التي أخطط لحضورها معه.

استقبلتُ صديقتيّ عشية.

جمعتنا فناجين القهوة، وأضاءت أمسيتنا قناديل الصداقة والحكي. إقامتي المؤقتة في بيروت أفرحتهما، وقرار انتقالي أنا ووليد إلى دبي أفرحهما أكثر. حكيتُ لهما عن الأشهر التي قضيتها في الخبر، وكيف ارتديت العباءة السعودية، وعشتُ أياماً بالأبيض والأسود. قلتُ لهما: وحده وليد كان يلون حياتي هناك.

اتهمتني لينا بالهروب من ماضي وليد في تلك المدينة، وقالت لي: لو بقيت هناك مدة أطول .. لكان بإمكانك فهمه أكثر .. وفك أسراره وعقده . حاولتُ الدفاع عن نفسي، فلم أهرب من مواجهة شيء في حياتي، لكنني لا أستطيع العيش في مدينة تفتقد الدهشة والحرية. لم تتوانى فدوى عن التفلسف، وأعزت سبب انتقالنا إلى دبي لرغبتي بالابتعاد عن كل ما يمت لشمس بصلة.

لم أكذب، واعترفت بصدق كلام فدوى فأنا أريد المحافظة على انتصاراتي. يجب أن أرحل مع وليد لأي

مكان على الأرض، ليعيش في مكان لا وجود لشمس فيه ولا يُذكره بها شارع أو بيت أو مدينة.

يجب أن تغيب شمس عن سماء ذاكرته وعاطفته وماضيه.

استلقيتُ على سريري في غرفة نومي المنسية، أستمع لما يقوله طفلي عبر حركاته. سألني عن والده فطمأنته بقدومه غداً وحكيت له حكاية قبل النوم، ونمت معه.

***

يا لفتنة بيروت في آخر الشتاء!

قدتُ سيارتي أتأمل أنوثة بيروت وسحرها في شباط. ذهبتُ إلى ساحة النجمة لأشرب فنجان قهوة، وأنفرد بنفسي في إحدى مقاهيها. اتصل بي وليد يعلمني بأنه ينتظر إقلاع طائرته بين لحظة وأخرى، وستهبط في الثالثة بعد الظهر في مطار بيروت. طلبتُ منه أن يتصل بي فوراً، وسأكون بانتظاره. رنّت ضحكته في أذني وقال:
- لا تجهدي نفسك حبيبتي .. تنتظرنا سهرة طويلة.

قضيتُ وقتاً مع نفسي، في انتظاره. أفكر بحياتي التي تغير مسارها منذ التقيت به في ميامي وحتى الآن. لقاؤنا

وفراقنا في ميامي، ولقاؤنا من جديد في بيروت وزواجنا. السعادة التي أعيشها لم تنسني توهاني الذي عانيته بسبب ما أحدثه في قلبي من دمار، وجاء بعد ذلك ينزع من أرضه الألغام ويعمّره، ويزرع مكان الانفجار الكبير وردة وقُبلة وطفل. طرأت ببالي مجددا فكرة تأريخ هذه الحرب، وكتابتها بدلاً من تركها إلى التاريخ ليحرفها ويغيرها فهو أكبر كذبة. سأحكي في كتابي كل شيء، ففي الحروب تضيع أنصاف الحقائق، وتُغتال الذكريات.

كم أكره الانتظار اللعين!

قرأتُ عناوين الصفحات الأولى لعدد من الجرائد التي تعيش على جنون رجال السياسة وأعصاب اللبنانيين وآمالهم بالغد الأفضل. طالعتُ إحدى المجلات الفنية أقرأ خبر من تزوج ومن طلق ومن سافر ومن مرض من الفنانين، وتلفنتُ على فدوى ولينا واتفقتُ معهما على اللقاء مساء الغد.

نهضتُ لأتمشى في الساحة التي بدأت تزدحم بسيارات الجيش ورجال الأمن إثر انتهاء جلسة مجلس النواب، فقررتُ الذهاب في جولة بيروتية. سأتمشى بسيارتي في كورنيش عين المريسة، وسألقي تحية على صخرة الروشة وأطمئنها عليّ، ثم أنهي جولتي في أحد مطاعم شارع الحمرا لأتناول الغذاء، وبعد ذلك أتوجه إلى المطار لاستقبال وليد.

لم أشتاق له في حياتي كما اليوم!

قدتُ سيارتي نحو عين المريسة مبتعدة عن العجقة، وأنا أستمع لإحدى المحطات الإذاعية. أوقف شرطي الدرك سير السيارات في منطقة السان جورج بسبب مرور موكب أحد السياسيين الخارجين من مجلس النواب.

رحتُ أراقب موكب السيارات الفارهة وهي تمر أمامي. أربع سيارات مرسيدس سوداء مظللة تماماً تتوسط سيارتي دفع رباعي، واحدة في مقدمة الموكب والثانية في مؤخرته. تساءلت مع أفكاري عن هويته وفي ثانية حسبتُ القيامة قد قامت، أو أنه اختراق إسرائيلي لمجال الصوت، وربما يكون قصفاً من طائراتها. دوي انفجار هائل والأرض تتزلزل، والمباني تتصدع وزجاجها يتكسر، والسيارة تمشي بغير إرادتي وتصطدم بعدد من السيارات المتوقفة قبالة أحد المصارف.

لا أدري ما الذي حدث، وهل أنا حية أو ميتة، أو أنني أحلم.

فقد قلبي السيطرة على دقاته ففرطت. ارتعشت أوصالي، وشدت بطني، وتسارعت أنفاسي. توقف عقلي عن التفكير وأنا أرى جثثاً متطايرة، وسيارات مشتعلة بالنيران، والركام

يغطي الشارع، وسُحب النار والدخان تصبغ سماء بيروت، والناس تهرع هرباً من المكان في كل اتجاه.

أردتُ أن أفتح باب السيارة و لم تسعفني يداي. شعرتُ بالدنيا تدور من حولي، وأنا ...

انتهت